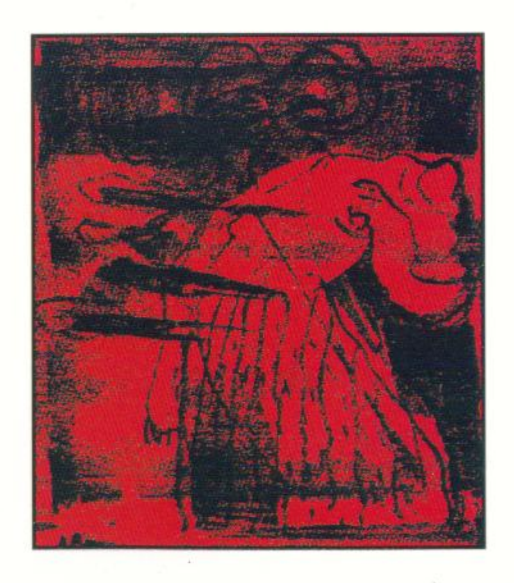
حيدر حيدر

الوعول

قصص





* حيدر حيدر
* الوعول
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الثالثة 2003
* موافقة اتحاد الكتّاب العرب رقم 566
* الناشـــــــــر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053
* الإشـــــراف الفني : د. مجد حيدر
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ـ 5141441 ص. ب 30249

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بطباعة أو ترجمة هذا الكتاب كلياً أو جزئياً، بأية وسيلة من الوسائل، دون إذن خطي مسبق من دار ورد.

Copyright © 2003 by Haydar Haydar
© Ward for publishing and distribution

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, inclouding photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

حيدر حيدر

الـوعـول

قصص

HAMDAN.B
18/11/2009

ابتهالات

«بغتةً هذه الطعنة في الفقرات، الأعشاب تبكي على ضفاف الأنهار

والريح تحمل رائحة كريهة.

إنه الدم الممزوج بقطرات الحليب هذا المنتشر

على وجه البحار.

انتبهوا،

إن يداً في لون الغدر

تمسح المدية بأنصال العشب.

أشعلوا الأنوار فالقاعات

مطفأة

أشعِلوا الأنوار فالطرقات

مظلمة

أضيئوا حقولَ البحر فالسماء بلا نجم.

إن عصر الجنود والخيانة

يزحف،

وجيوش «أتيلا» تدق نوافذ الأوردة.

أضيئوا. أضيئوا

فإشعاعات الدم وحدها المصابيحُ

في هذه اللحظة العمياء».

الـوعــــــول

«إلى الذين قاوموا الإرهاب وعصور الطغاة والفاشيست بالدم والنفي والسجن والجوع والبقاء أحياء».

«وأرى في المنام أنني أذبحكِ. وبخروج الدم يخرج ألمي ويتسع صدري للرياح. الآن أستطيع تمثل الأوكسجين في دمي المغتسل بدمك. والآن تموتين كما يليق بعاشقة خانت أن تموت».

1

للتو فرغت يدي من المذبحة. رأيت دمك يتناثر ويسيل ويلطخ الفراش: فراشنا الذي كان.

وقبل ثوان فرغنا من طعنات الجنس. صوتك وأنت في غبطة الوهج الشهوي لا يختلف كثيراً عن صراخك وأنت تتلقين الحركات العميقة لطعنات المدية.

إن خيوط الفجر يكتمل نسيجها في ليل الفاجعة، وعما قريب تسطع الشمس.

آه! يا للصباح الجديد. لابد أن الفضاء سيكون أكثر نقاوة منه في أي وقت مضى. وسيكون الهواء مطهراً من الجراثيم. دقائق وأدخل الحمام لأتطهر أنا أيضاً. إن جسدي يرغب الاغتسال من أدرانك القديمة. ستتفتح مسامي لاستقبال نهار ساطع، بهيج كشواطئ البحار الآسيوية.

تموتين! إذن أنا أتحرر.

سيكون بمستطاعي بعد الآن التمدد فوق سطح بحر، أو داخل غرفة في مساحة قبر فوق حجر من إسمنت بارد. هناك سأحلم بنجوم في لون الزنبق. نجوم يصلها بصري الذي كان محجوباً بغلاف من لحم رديء.

سأتحرر من عبودية جسدك الضاري فأصير خفيفاً، رشيقاً كطيور الغابات.

ها أنذا أعود إلى أصلي الأول: الطبيعة.

وتعودين إلى أصلك: المشرحة.

خلال زمن طويل كنت أقوم بتدريبات خاصة للوصول إلى هذه الطقوس الجميلة. عبر هذه التدريبات القاسية كنت أتعلم كيف أكسر خوفي من عبور تلك الممرات الأرجوانية والسوداء.

ساعات طويلة وأنا أتلقى الموسيقى الوحشية. وداخل ظلام صلب كنت أتمرن على القتل الوهمي. خلال هذه الساعات كانت التطهيرات الداخلية تتم على مراحل. كان ذلك يُذكّر برجل يطعم شجرة من زوائدها وأغصانها اليابسة. طفل يتدرب على المشي. يسقط وينهض. يلعب بالخطر حتى ينفجر البارود في وجهه فيألف ويتحدى الخوف.

وهكذا كان لابد من قهر العواطف والرعشات كي تصبح اليد ثابتة، تتقن التسديد دونما خطأ، وكان هذا يحتاج إلى تمارين قاسية في أوقات السر. تمارين عضوية في أوقات تجسيد الموت على المسرح.

شيء ما ينبغي أن يموت. شيء ما خائن وملوث لابد أن يرحل عن العالم. كان هذا هو الإيقاع النفسي. هناك خلل في نبض الدم. جراثيم تحرّ نقاء الدم. إن رجلاً في العالم لم يؤذِ أحداً كان يتأرق

عاجزاً عن النوم. حتى الشفق الأول يظل مفتوح العينين محدقاً في لطخة سوداء.

ذلك الرجل كان يتدرب على الرمي ليستطيع النوم.

2

أتذكرين أيام كان الحب إلهنا الذي نعبد. إله الشواطئ والغابات. أيام كنت تقولين: من كل ممالك العالم لنا في البحر صخرة وفي الغابة شجرة. هذه ممالك العشاق.

وفي ذلك الوقت كان العالم يتوشح المال والقصور والسيارات والمقايضة والنهب. عالم يلهث كالخنازير وهو يغوص في أوحال الربح والثراء موغلاً في الخيانة والقتل وتدمير الأوطان.

وفي تلك الأزمنة كنا طفلين، نعيش على الخبز والموسيقى وأعشاب البر. نتجه نحو أبواب البحر، نجري ونغني ونسبح في المياه الزرقاء. نجمع قناديل البحر وأشعة الشمس ونحلم.

مخدعنا كهوف شواطئ الرباط، وغطاؤنا سماء عارية، والحلم طفل في لون زنابق البحر.

- أيكون ذكياً ووحشياً طفلنا؟

- كيف يكون طفل أمه أفريقية وأبوه آسيوي؟

- حار كالشمس.

- ولامع كأصداف البحار.

- وهل سيطارد الفتيات منذ الصغر؟

- سيكون وعلاً تطارده غزالات المدينة.

- وهل سيحب الموسيقى والمطر؟

- وسيكون قاسياً صعب الكسر.

- وهل ستمر عليه أزمنة الرداءة والخيانة والموت؟

- أوه. يا لأسئلتك التي لا تطاق. هيا بنا إلى البحر!

يومذاك كنت في نقاء ونهوض الحقول التي لم توطأ. صخرة ينكسر عليها الموج فيرتد ويتناثر.

همود عينيك الآن وسكينة جسدك، يعيدانك إلى أزمنة البحر والعشب، والسموات التي كانت فسيحة وخضراء.

ولكن لماذا ما عدت جميلة ونابضة؟ أي خلل حدث في مجرى الينابيع؟ ولِمَ تلوحين الآن كدمية من غضار؟ أبتلك الطعنات السريعة الخاطفة تهجعين هذا الهجوع الصامت؟ تتحولين إلى حجر بارد ملوث برشاش الدم؟ لماذا؟

لماذا لم تصرخي وأنت تُذبحين؟ ولماذا لم تدفعي حد السكين وهي تحتزُّ وريدك؟ أكان عليك أن تقبلي الموت دونما صرخة هكذا؟

أتراك أحسست بالإثم، وأن الموت يليق بك في هذا الوقت الذي تاهت فيه سفينتك في عرض البحر؟

لابد أن فصد الدم كان يعيدك إلى نقاء الحقول واخضرار البحر. هكذا. هكذا أيتها المرأة التي لا تني تمارس عادتها السرية على مدى العصور، في ليل هادئ، وفي غياب رجل يُخدع أبداً .هكذا نثأر نحن اللواتي أُذللن في الأزمنة الذكورية.

3

على صوت الموسيقى وإيقاع الرقص المجنون. تحت ليالي أوروبا الملونة التي تدير حركة الشمس والعقل، حدث الكسوف. سطعُ الضوء كان مبهراً، كذلك كانت الصدمة بين الصحراء وإيقاع

الجيرك الوحشي. هو ذا الجسد يكسر أغلاله القديمة فتتمزق أقمطة الطفولة. عالم من الأسر والطغيان والمهانة القديمة، كان يغل الدم ويقيد الحركة، هو ذا يتهاوى. وها هي ذي حقول وأبواب ورياح جديدة تهب. وأنا الطفلة القادمة من سجون القبائل، ومدن الرجال المستبدين، أهدم حدود الإرهاب لأكون نفسي. أمتلك شراع سفينتي وأوغل في غمر البحر. بلا ندم أقذف أصفادي في عمق هذا الماء، وأتعرى. إنني فرحة بجسدي الجميل وقد صار ملكي. أستحم في المياه الخضراء، طليقة وسعيدة كطائر كان مهيضاً هو ذا يمتلك جناحيه والفضاء الشاسع ملكه.

- من أنت؟

- رجل كان يحبك كمؤمن يعبد إلهه.

- آه. لقد نسيت.

- بيننا تاريخ!

- أنا أكره العالم القديم.

- لكننا امتزجنا كنا الشمس والأشعة!

- هيه. مازلت ذلك الشرقي الحالم بالصحارى.

- لكنكِ الوطن والضياء في عصور الخيانة والعتم. ما الذي حدث؟

- سئمت الكآبة والكلمات التي لا تقدم خبزاً.

- قلبي حقل وأنت عشبه الأخضر.

- أف، يا للشعراء المأفونين في عصر الجيرك والأرصدة.

- هل تحوّلتِ إلى امرأة أخرى؟

- ولكن أنت ما الذي تملك؟

ـ قلباً لا يخون في أوقات الضيق.

ـ عنيت ما رصيدك في البنوك. ما نوع سيارتك. ما حجم شقتك ولون ديكورها؟ عنيت، أنرقص الليلة في «البيغال»؟

كان هناك سوء تفاهم. خلل في شروق الشمس والأمطار وهذا الضباب الهابط. بين الزمن والزمن كانت هناك انهدامات حدثت في غفلة.

لقد محت الزلازل والفيضانات والأعاصير الجائحة جبالاً وصحارى وبحاراً، وفوق الغمر نهضت القارات الجديدة. أوه. ياللزمن القديم. زمن الطفولة ومسرات الشمس التي غابت. ها هي ذي الرسوم والفسيفساء القديمة تندثر: الأكواخ وأغاني الرعاة وأصوات الطيور والزوارق الشراعية ومصابيح الصيادين في حقول البحر.

نحن الآن في الوقت الآخر. الوقت السريع، الخاطف. وقت الرقص والإعدام.

هو الذي تحرر بالقتل، خطا خطوة فدخل عتبة الجنون العظيم. وهي التي تحررت بالخيانة، دخلت رحابة العالم.

كلاهما كان مأسوراً، وكلاهما كان يختنق في ذلك الجحيم السلبي. كانا مشتبكين داخل شبكة الحياة، متداخلين في لعبة الشهوة داخل حفرة بحجم غرفة أو سرير بين أسهم الكلمات والحركات العضوية، خارجهما كان انفساخ العالم، وبينهما الشخص الثالث.

هذه العادة السرية بين رجل وامرأة والتي سمّوها الحب تتحول تحت طقوس الرغبة إلى نزق. مع الزمن تصير المنفى. لابد أن هذا الطاغية المسمى الجسد يختصر العالم والحرية بطعنات إيقاعية واحدة لا تتبدل.

ـ لماذا لا تتكلم؟

ـ الجسد.

ـ ولكن قل أي شيء!

ـ الأعضاء.

ـ الكلمات ترفع الهياج.

ـ آي. آي. الألم. أنا أختنق.

الجسدان المستعبدان يرسمان الآن اللغة: شجرها. موجها. رياحها. نيرانها. هذه الرموز تتصادم وتتشظى ثم تنصهر في مهرجان من جنون الدم والموت.

آه. يا لمجد وصولة الجسد. لماذا يتهاوى كالآلهة الوثنية تحت وطأة هذه الحرب الخاطفة المقدسة؟!

وما كان بيننا أكثر من ذلك. اكتشفناه متأخرين. كنا عبيداً في إمبراطورية الحواس. تاريخنا كله في الرباط وصحارى الشرق وليالي أوروبا، تفتَّح ميراثاً للجسد ودثاراً قديماً لهذا السيد الطاغي.

الثمل والرقص والموسيقى والكلمات الجميلة، ثم السفر، لم تكن أكثر من تهيئة لاحتفال عضوي سيُطلق في لحظة ابتهاج، برقه الهالك.

أتذكرين البحر، بحر الرباط الجميل الوحشي، وبحر شرقي المتوسط الساجي، كيف كنا نوغل فيهما. في البداية كأطفال نتقدم وجلين من برودة الماء. نتراشق ليتآلف جسدانا مع طقس البحر. تصيحين وأنا أبلل وجهك وصدرك وحوضك برذاذ البحر. ارتجافك من صدمة البرودة يعيد للذاكرة رعشاتك تحت عصف الجنس. نغوص ونشبح بعيداً بعيداً في عمق المحيط. البحر الغريب المفزع يصير أليفاً بيننا وتحتنا. بغتة في هذا الدفء الحريري وجسدانا يتماسان يتحول البحر إلى سرير. الطفلان المنطلقان من الشاطئ

يصيران رجلاً وامرأة. رجل عار وامرأة عارية في سرير البحر الذي التهب.

آه. آه. هو ذا الجسد، السيد، الجبار، العظيم، الرحمن، والذي لارادّ لمشيئته، يبتدئ خلقه الخاص داخل هذه السموات الأرضية الزرقاء.

4

اسمي غزالة. هو كان يدللني فيسميني وعلة الغابات. عندما رحلنا إلى البحر وصار البحر معبدنا المقدس، أسماني جنية البحر. بعد أن نمونا وطاردنا طيور الحلم، رحلنا إلى باريس. هناك التقينا ذات شتاء. في «اللوفر» كنا مسحورين بلوحة «الموناليزا»، وهناك أسماني الجيوكندا. اشترى لي لوحة «ليوناردو» المصورة، وأنا قدمت له لوحة مصورة لداؤود.

في تلك الأزمنة كنا نلتقي بعد شتات. بعد أن هبت العاصفة وفصلت الجسدين. وفي تلك الأزمنة كنا نعيش على شظايا الماضي. الحالة التي تقع بين الغربة والوجد المجنون. داخل تلك الحالة كنتُ حريتي وحياتي الجديدة، وكان هو ينحسر كموجة هاجمتني وأنا غافية على شاطئ الرباط. منذ زمن كانت باريس زهرة الحلم القديم. دخلت دمي الآن. جارحة، وعبقة، وموحلة. كنت تحت الكابوس. ضعيفة، مستلبة بهذا اللفح السحري، الصادم. هو معي وغائب. المدينة الأوروبية تنهض جداراً من فولاذ. لقد بهتت مدن الأعراب فبدت صحارى تسفيها رياح الخماسين.

بعد العام الأول صار يلوح في ذاكرتي أعرابياً تائهاً، مأخوذاً برموز أجداده القدامى وحضارة الشعر والحرب.

أنا كنت أتحول. هو كان يبدو لي راسخاً كالرمل. في هذه الواقعة التي سأسردها سأحاول أن أوضح حالة زهرة عباد الشمس، وهي تكسر إناءها وتخرج من جاذبية الأشعة.

كنا في حفلة رقص. فتيان وفتيات أحرار ومجانين. مراقصي كان فرنسياً. كان جميلاً وعيناه في لون البحر. في تلك الليلة كنت ثملة. الرقص كان يحررني من كل أصفاد العالم. وفي تلك الليلة داهمني إحساس غريب. جسدي كان يطلب رجلاً آخر. غير أنني كنت ما أزال ملتاثة بعبق ذلك الرجل البعيد. الرجل الذي عاشرته لسنوات كامرأته، كان يفصلني في الرقص. يقع بيني وبين هذا المراقص الجميل البارع. لثلاث سنوات متواصلة كان يستعمرني. كنت تحت سيطرته كواحدة من إمائه أو عبيده. منومة بإغوائه. وتساءلت: كيف تستطيع امرأة البقاء أسيرة رجل حتى الموت؟ كان ذلك كريهاً. ثمة تواطؤ يحوّل الأيام إلى مرارة مستساغة. ومع ذلك كان في حبه شيء خاص. ما كان شريراً ولا نذلاً، كان يحب بطريقة الأساطير القديمة. لكن ذلك الحب الخرافي كان عبودياً سلبني المقاومة. طغى عليّ فسدّ جميع المنافذ. صوته، رائحة جسده البري، كانت تحاصرني كليل واحد، متكرر، هابط فوقي على مدى العصور.

هو ذا الآن يقع بيني وبين هذا الجميل الأبيض، البارع.

- إلى الجحيم.

الجسد الطاغي كان يرغب. كنت ملتهبة. اندحر ليل الصحارى، وهوت السدود الداخلية، وطقوس الوفاء وغباء الطفولة، والعهد القديم.

- إلى الجحيم. قلت لنفسي مرة أخرى وأنا أبعثر رموزي وأشيائي، وتاريخي، وسطوة الرجل الوفي، وعلامات الإخلاص، والبراءة، ووهج الشموس الضاحكة.

- سأكون الليلة نفسي الأخرى. المرأة الثانية التي تطلب الرجل الآخر.

في فراش الرجل الفرنسي كان الاحتفال باهتاً. أعطيته جسدي بطلاقة، لكنه كان عادياً وبارداً في لحظة الجنس. لفحني إحساس غريب. ما كانت اللحظة التي اخترتها في مستوى الثأر. هذا الرجل الغريب يستدير عني بعد المضاجعة وينام بصمت. لوهلة أحسست أنني مبتذلة عندما استسلمت بتلك السهولة. فيما بعد أدركت وخز الألم.

من غرفة الغريب خرجت متسللة. على ضفاف السين أسير وأنا في حالة غثيان. شعور مرير. تصدع ما حدث في مكان من النفس. سيارة خاصة تتوقف. يناديني الرجل الأشقر من وراء المقود. أرفع رأسي نحو الأعلى وأبصق. شيء ثقيل، ضاغط، يشيل في صدري. وأنا أتكئ على الجدار الحجري للنهر، يندفع غثيان حار يصحبه نشيج.

من العمل المضني السالب إلى البحث عن الطعام. ضجر، رتابة، ركض، ميترو، مقهى، سندويش، نوم فأكل فجنس فتبول. إنسان في عالم الممحاة والصخب.

المدينة الجديدة أخذتني من وضعي القديم: ميراث الشمس والعواطف الحارة.

بعد الرقص والموسيقى والضحك الهستيري داخل القاعات اللامعة بأضواء النيون. بعد أفلام العري، والستريبتيز، يستمر الحياد ويتأصل. لا شمس. الحرارة امتصها الجليد. الجسد سطح. كتلة هامدة تحت أشعة النيون الجنسي. فيلم «إمبراطورية الحواس» «لأوشيما» الياباني يقول ذلك بدقة وتركيز. بكثافة فاجعية.

ـ الحب الفيزيائي هو كل شيء.

أقول ذلك معه ونحن نتسكع في حدائق «اللوكسمبورغ».

ويقول هو: الفيزيائي يصدأ ويتآكل. «أوشيما» رسم الدارة المغلقة. موت الفيزيائي بالاستنزاف العضوي.

ويقول أوشيما عن فيلمه: إمبراطورية الحواس فيلم سياسي. إن شخصياتي تدير ظهورها للسياسة في زمن تتحكم فيه الدولة بعقل الإنسان. أمام هذا التحكم تنخرط في الجنس. عليك أن تعود إلى الطبيعة البدائية للبذرة.

وأقول وأنا ضجرة: ولكن القوة. الطاقة الدينامية هي مفاعل الحياة. عندما لا يكون التوازن بين اثنين متحققاً يتهشم العالم. هذا ما حدث في الفيلم.

كنت ألمح إلى حالتنا التي وصلت عتبة الانفجار. علاقتنا التي اختلت بتواتر الزمن الرتيب بعد أن مات نسغ الطفولة فيها.

بدا مدركاً أين تصب كلماتي. لكنه كان حزيناً. كان غريباً في بلد بعيد وأنا دليله وبوصلته. وكنت مدركة لانفعالاته وهو يراني أتحداه. وهو يدرك أنني أتشفى منه.

كظم غيظه. أحسست به يداري رغبة قتل داهمته عندما شرح بأن «أوشيما» في فيلمه يحطم حضارة أوروبا المعاصرة، حضارة الرومان السبارطية المستعادة الآن في الجسد: الاستعباد العضوي. الجنس الآلي. هذا الفيزيائي يمتص العصارة الداخلية لوهج الإنسان. بذلك يتحول الإنسان إلى جثة.

وقلت: عندما ينتهي الرجل إلى جثة وتبقى المرأة حية مشتعلة تقطع أعضاءه التناسلية. لقد اهتزت المعادلة.

ـ ولكن لماذا اهتزت؟ هل تساءلتِ؟

ـ ما عاد بإمكانه أن يروي أرضه الحارة.

ـ وماذا بعد الجسد؟

كان يتحدث عن حالتنا. الحالة المغلقة. الأرض الداخلية.

اللامبالاة والسأم والزمن العملي، تلك كانت حالتي. كنت مجذومة. الأحاسيس الحارة، الأحلام، الدهشة، الطفولة والبراءة، تحولت إلى رموز غبية. رموز مضحكة، بالية، تمارس طقوسها قبائل زراعية تعيش على هامش الانقراض في آسيا وأفريقيا.

هُمْ وهو يقولون عني أنني استدرت عن وطني. خنتُ ميراثي.

سأقول لهم بأنه كان وطناً جارحاً. كان كذبة كبرى وما كان وطني.

في الأسرة كنت تحت المراقبة والحصار. دمية وضعت في قالب من الإسمنت. لعبة كريستال مهددة بالكسر. لقد صانوني بالأحداق والأوامر والنواهي احتراساً من خطيئة الدنس. علي أن أبقى لامعة ونقية استعداداً ليوم الحشر الأعظم. ليوم الرجل الفاتح الذي سيقتحم مملكته المتوهجة. المملكة المسوّرة بالغشاء المقدس.

المدرسة كانت زنزانة. الشارع أيضاً كان يراني مومساً. هكذا كنت في مصيدة نصبوها. أعيش حياة أسموها حياتي بينما هي حياتهم.

لماذا يكون علي أن أظل وفية لوطن الأجداد؟ ألأنه يشع شمساً ويمنحني الرياح والأرض والسماء والشجر؟ في أي مكان في العالم شموس تضيء وأرض ورياح وشجر. كان وطناً مسلوباً مني وكنت فيه غريبة. أينبغي أن أقول بصوت صارخ: كنت فيه شبه عاهرة؟!

لعلّ المسألة ليست هكذا تماماً. أعتقد أنني أنأى عن مركز النار. أبتعد عن الفتيل الصاعق الذي يفجر المركز.

ولكن لماذا لا أستطيع أن أقول ما ينبغي أن يقال؟ لماذا لا أجد الشجاعة في القبض على الجمر؟ لماذا ليس بإمكاني أن أصرخ: أنا ضجرة من الوجه الواحد. ومن الرجل الواحد. ومن الشمس التي تتكرر. ومن الفعل اليومي المتكرر. ومن هذا الزمن الغبي الذي لا ينفجر. ومن هذا الجسد الحيواني الاستبدادي. وأنت أيها الرجل

الواحد كريه. أنت أيها العصر المقيت متواتر. أنت أيتها الشمس المشرقة والمغربة لا تكفيني. أنني أتوق لانفجارات تتجدد. أتوق للأراضي العذراء. لغابات وبحار غامضة. لمدن ومحطات وقطارات وسفن دائمة الحركة. أرغب الخروج من هذه السجون والأوثان والآلهة والأرحام القديمة.

آه. كيف يعبّر طفل يختنق عن توقه لهواء نقي. لفضاء غير ملوث بجراثيم!

5

إلى أي مدى يبدو الأمر ناجعاً لو قلنا: كنا نعيش في الزمن الرديء؟ ولو أوضحنا بلغة شكسبيرية: أيتها الآلهة الجاحدة، إنني أرى بروقاً وأسمع دوي رعود قادمة من سماوات تنذر بالشر. إنه القدر هذا الذي يتوهج في لمعان البروق، وديدمونة الجديدة تهوي ضحية الرعد.

لا شيء سوى مهزلة مليئة بالصخب والعنف.

كنا مانزال في عصور الرعي. العصور التي يتدفق فيها الدم حاراً في العروق. شموس وضيئة تنبض في الشرايين فيتوهج الرأس بملايين الشرارات. طيوف بحار وأمطار ووداعة وطفولة. وكنا مانزال أسرى العصور الرمادية القديمة. عصور الوفاء والوداعة الروحية والتضحية بالقلب من أجل مثال نعبده ونقدم له القرابين. زمن الفرسان الأهبل كان مايزال في ساحة الدماء.

هل نقول: كانت مصادفة؟ أم أنها حالة عامة؟ أم خديعة؟ أم لحظة غياب؟

ما كان الأمر هكذا. كان شيئاً من هذه الحالات. حالة من زوغان الوعي اجتاحت الطبقات الغامضة فأفقدتها توازنها الداخلي.

قد لا يكون مهماً كيف تبتدئ الأشياء. كيف يتم تعارف امرأة برجل. إن الأمر بالنسبة لنا روتيني ورومانسي دائماً. الفاجعي هو المهم في ذلك التوهج الطفولي. والفاجعي هو ما يأتي بعد وقت الضجر. بعد أن يسأم الأطفال من لعبة العريس والعروسة التي لاجديد فيها. هذه المرارة التي تخدعنا جميعاً تحت قبة الهيجان الوحشي للجسد.

وما كان الأمر استثناء.

كنا منفيين في الزمن الغريب. ولنواجه قسوة العالم وبربريته الصاعدة كان علينا أن نلوّن المصادفات الصغيرة بالسعادة والغبطة ولون البحر.

ومع ذلك كنا حزانى في ذلك الوقت الصعب.

لقاءاتنا، مجراها الطيفي والأوقات التي لاحت ملونة، وشّيناها بفرح نسجناه من لون زنابق البحر ومن التوق السري للقلب المنقبض.

في لحظات مريرة كنا نختصم. اللحظات التي يهاجمنا فيها الحزن والزمن الغريب.

كانت تقول: لماذا تبدو رجلاً مهيئاً للانفجار دائماً؟

وأردّ: ولماذا أنت مستسلمة لعصور الرداءة؟

تهتاج وتصرخ راسمة في الأفق افتراقنا. لكنها لا تلبث أن تدخل في حالة نحيب. وإذ أصرخ فيها بوحشية: أنت لست مجنونة بما فيه الكفاية! كانت تزداد انتحاباً. في تلك اللحظات الغريبة كانت ترى مستقبلها الأسود مع رجل مجنون. وكنت أزداد حزناً ومرارة.

بعد اختصامنا اللعين، يقبل الجنس تكفيراً للإثم النفسي. وفي سماء الصحو الجنسي تتلألأ، مرحة، مغتبطة. وفي أوج غبطتها أسألها: لماذا تثيرين هذا الشجار؟

تقول بضحكة تنزّ فجوراً: بعد الشجار ينتشي الجسد ويتهيج. بالجنس يتوهج زهر الجسد.

وما كنت أفهم كثيراً. فقط أحدق فيها مندهشاً. الطفل الذي وشّاها بالبنفسج والشمس يسأل سراً: أتكون فاسقة هذه المرأة الغريبة؟

لعبة الحب والحزن والجنس عصفت بنا زمناً.

كنت مأخوذاً بما سمّيته: امرأة العصور القادمة. مهووساً بهذا البريق الوحشي والطفولي لامرأة تنبثق كالنار من رماد الأزمنة المنحطة.

تلك المرأة التي تبدو هناك في الجزر الغامضة، وتحت صخور القلب الحزين، لابد أنها اجتاحتني بغوايتها. في زمن ما امتزج الدم بالدم. الأدغال والبحار وأشعة الشمس صهرت الجسد بالجسد. كنا غرباء ولكننا كنا مأخوذين.

لقد بدا الموت بعيداً آنذاك. كان بعيداً جداً في ذلك الوقت.

كلمة امرأة في بلاد المسلمين، الطغاة بالفطرة، تبدو وكأنها المعادل الموضوعي لكلمة بغي. قد أبدو قاسية في هذا الحكم، لكن المرأة التي ولدت في أسرة مسلمة وحدها التي تعرف جحيم هذه الحالة. الجواب الداخلي هو احتقار الرجل والثأر منه في لحظة الغفلة.

بالنسبة لي يبدو الأمر عادلاً، مادام يعطي لنفسه حق وراثة الأنبياء. مادام يعتقد أنه من جنس الآلهة والمرأة من فصيلة القرود.

أذكر الآن لحظات نشوته. تفوقه الأحمق وهو يروي سلاسل مغامراته مع نساء نسي عددهن وأسماءهن.

هنا في أوروبا يزهو الرجل بالاكتشاف. اكتشاف علمي.

اكتشاف موسيقي. اكتشاف أدبي. وفي بلادي القديمة يزهو الرجل بعدد محظياته وجواريه. بالكشف الباهر لافتضاضه غشاء بكارة مصاناً من الدنس.

المدينة التي تعارفنا فيها وعشنا زمناً، مدينة صغيرة، مدينة إسلامية هجينة. سطحها الخارجي موشى بالنفاق السائد، وباطنها عالم زاخر بالفسق واجتياح المحرمات. مدينة حزينة، تحيا بين الظل والشمس، في النقطة الرمادية البعيدة عن البحر، والبعيدة عن الصحراء.

في تلك المدينة حاولنا معاً نسج لون جديد لسماء وأرض من طيف الشمس والبحر.

وفي ذلك الزمن كنت مولعة به كطفلة لم تر من العالم إلا مدينة بحجم سفينة. كان يعوّض لي خسارات وسجون المنازل والشوارع الضيقة. تعلمت منه أشياء كثيرة. كيف أواجه العواصف وأحقاد البشر وسطوتهم. كما تعلمت كيف أكون نفسي. كيف أطير ولكن في سمائه. كنت في ساحته المغناطيسية. وفي تلك الأزمنة كنت راضية.

الآن أكتشف، بعد أن تحررت منه، أنه كان وحشاً هو الآخر. كان نزقاً، مجنوناً، يثور لأتفه سبب، ولا يقبل الاعتراض. كان معتداً بنفسه كإله معصوم، يقول للأشياء كوني فينبغي أن تكون. وأنا كنت من تلك الأشياء.

ومع الزمن اكتشفت نقطته العمياء. خميرة التدمير الذاتي.

في لحظات الوهج كان يسأل: لماذا ما ألمسه يتحوّل إلى رماد؟

كنت أدهش من هذا الشعور الانهياري.

هذا كان يحدث ونحن نعيش قمم أفراحنا. وكنت أسأله: ماذا تعني؟ فيسألني: لماذا تبدين لي في لحظة ما هشّة سريعة الكسر؟ ثم يوضح بحكم قاتل: ستترمدين يوماً. يجيء زمن فتأخذك المقابر.

وأسأل: ولكن من أين يأتيك هذا الإحساس الأسود؟

ويبدو لي وكأنه مشتبك مع طيوف وأشباح تعصف برأسه في ساعة جنون.

وأقول: اطرد هذه الأشباح الكريهة. نحن نحاول أن نبني بيتاً على أبواب البحر.

لكنه كان يواصل هذياناته: بيت. بيت. من الذي يستطيع أن يقيم بيتاً في هذا العصر؟ إنما نحن هالكان يا عزيزتي. هالكان منذ زمن طويل.

كنت أفهم ولا أفهم. وكنت أسأل نفسي: ألهذا الرجل حياة أخرى لا أعرفها؟

كم كان مؤذياً شرخ لحظاتنا. هراء أو حماقة هذا الذي يحدث.

في العمق المظلم من الذاكرة كان يبدو لي رجلاً ممسوساً ومدمَّراً. رجل متحالف أبداً مع الحزن والفواجع.

ومع ذلك كنت أسأل نفسي بعيداً عنه: من أين سقطت علي هذه الكآبة وأنا على أبواب فتنتي باكتشاف العالم؟

في مثل تلك اللحظات كنا نشتبك في شجار. شجار حاد يصل حدود الصراخ والإيذاء والشتائم.

ونفترق.

نفترق وكل منا يقول: إذا كان القطب بالقطب يلتقي نلتقي ثانية.

وقبل نهاية الأسبوع كنا نلتقي.

لقاء شمس بأرض افتقدت الأشعة منذ عصور.

ويكون هادئاً لقاؤنا ويكون شفافاً كالدمع!

طفلان عاشقان تشاجرا حتى الإدماء، ها هما معاً مرة أخرى.

ـ كم كنتَ قاسياً!

ـ كم كنتِ متوحشة!

ـ أما زلت تحبني؟

ـ هل ذاب جليد حقدك؟

ـ أتغفر؟

ـ وأنت؟

ويتدفق الموج القديم الأخضر حولنا. يستعاد زمن اللغة. زمن الحنين والضياء.

يغمرنا سلام هادئ، سلام ما بعد العاصفة. إننا نبتعد ما أمكن عن مركز الإعصار. كل منا يدفن جنونه ووحشيته في الركن المظلم من النفس. في الشارع والسينما والجامعة ومخازن الكتب والمتاحف، نطلق قوانا الضاحكة والساخرة. نستعمل الألفاظ البذيئة والطفولية، ونمارس القبل والضرب على المؤخرة (عادة قديمة بيننا). وإذ نسكر نندفع إلى الشوارع تحت المطر. نصيح بصخب وجنون ونغني لفيروز: زوروني كل سنة مرة.

كنا نفتح الأبواب والنوافذ لينابيع الشمس المتدفقة، موصِدين في لحظة عشق مهووس، كل نوافذ وأبواب الليل.

6

مملة المرأة بعد لحظات الدهشة الأولى. اللحظات السرعان ما تتبدد كغيوم الصيف.

وأنت تنجز قتلها بالكراهية والاشمئزاز ثم الانعطاف عنها تتحرر من خديعتك. من وهمك البدوي عن بريق السراب الذي ليس بحراً.

ما معنى أن يظل رجل وامرأة معلّقين كثوبين باليين فوق

مشجب، دونما تفكير من أحدهما بالنزول والاستراحة من ضغط أنشوطة الإعدام؟

غير أن تلك المرأة المقتولة تظل كالندبة في السهب القصيّة من حقول القلب.

هي ذي تقبل في الوقت الصعب. تتشكل في مدار الحلم، في اللحظة التي نفيت فيها إلى أقاصي الصحراء، تقول: أنت بحاجة إلى شربة ماء أيها البدوي!

قامتها الناهضة، جسدها العاري البهيج كبحر تحت شمس، ثم هذا الدم البدوي الناغل، كل هذه الصور والإيقاعات تخلخِل المعادلة الداخلية. يحدث ارتجاج في الكواكب التي تدور بقانون الجاذبية.

المرأة التي شممتَ رائحة خيانتها، شم الخيول لرائحة المطر قبل الهطول، ها أنت تهطل بين فخذيها كغواص في أعماق محيط.

إنه المنفى.

والمدينة الغريبة، مديدة وملتوية ونائية كمتاهة.

وأنت الغريب كحصى البحار.

وهذه المرأة في المدن الغريبة، تنفرد بك انفراد صياد جبان بذئب جريح.

تقول: هل عرفت نساء غيري؟

وأنت ثمل تسأل: ولماذا السؤال؟

وتقول التي ارتوت: لأعرف كيف كن يعطينك!

وأنت تضحك: البحر هو البحر.

المرأة التي ارتوت تقول: أنت خائب.

ويسألها الثمل الهاجس: ما طعم الرجال الآخرين؟

والثمل جريء. إنه يتحدث دونما مبالاة بالعاصفة. تحت غلاف الجرأة يستكن رعب المفاجأة. الشعور بالخزي من ضربة الخيانة وقد شممت رائحتها وأنت لا تصدق.

ولأنها تحولت إلى امرأة من نتاج عصور الرداءة والكذب، تكتفي بالابتسام. تتحدث باشمئزاز عن الرجال الذين لا ينشدون أبعد من الفروج مبغى لهم. تواصل نسج أوشحة الضباب بالحديث عن قسوة أوروبا الغارقة في الحس واللامبالاة. عن العالم الهش الذي نحلم به قبل الخروج من الصحراء.

في ذلك الوقت المضني، كنت وحيداً ومنفياً، وفي أعماقي لم أصدقها لا لأن ما قالته ليس صحيحاً، إنما لأنها أرادت أن توحي بالإخلاص على ذلك النحو المخاتل.

وأذكر أنني كرهتها آنذاك. أود أن أقول: اكتشفتها. ولأجرؤ على مصارحتها شربت تلك الليلة من كل خمور العالم.

معاً كنا نعبر شوارع باريس. وكان الشتاء قاسياً. كنت قادماً من الشرق بمهمة خاصة. وفاجأتني ضخامة المدينة ومتاهاتها، لكنني اكتشفت الخمارات. قلت للمرأة التي صادفها فرحي: مرّي بي على كل الحانات واسقِني من خمورها.

وكنت حزيناً وخائفاً. وكانت هناك مدينة مخيفة. جميلة وعامرة بالحجارة والصخب. وكنت فارّاً من طغيان الشرق.

وقالت المرأة التي تسير قربي: لابد أنك مذهول بهذه المدينة المضاءة. وضحكت وأنا ثمل بالنبيذ الأبيض.

ضحكت عالياً، وسألتني: ألهذه الدرجة أنت سعيد؟

وأنا حزين كرصيف مهجور، قلت: إنها مدينة معتمة. وما كنت متأكداً من جوهر العتم، أهو في خلاياي أم في خلايا المدينة، أم في المرأة التي فقدت توازنها بعد أن اختطفتها رائحة الغرب؟

لابد أن أعماقي كانت تجيش بالشر آنذاك. وقلت: أفهم الآن لماذا كان «بودلير» بربرياً في ثوب من مخمل. وسألتني المرأة عن فحوى العبارة، فقلت بأن النبيذ الأحمق هو الذي ينشر عواصفه في هذه اللحظة. وابتسمت ساخرة.

وأذكر أنني كنت أرتجف من البرد ومن صدمة النار في جوفي. حنِقاً من هذه المرأة التي أغرقتها التفاهة. وولجنا بيتاً أو فندقاً، لست أذكر تماماً. ولاح العالم مظلماً وكئيباً. وفي رأسها كان يشع الجنس، وفي رأسي رحى الحرب. وبدونا غريبين. مفصولين ومتحدين في عصر النيازك التي تتناثر. وما كان أحد منا يعرف متى ننصهر ومتى نفترق. كان الحنان والدفء مفقودين. كنا نرتجف من هذا الصقيع. أحدنا فقد أمه والآخر أباه. وفي تلك الآونة من الصقيع كان الوطن زورقاً يمخر محيطاً تجتاحه عاصفة.

وما كنت متأكداً من توازني بين البحر والإعصار والمراكب. وقلت لنفسي المفعمة بالشر: يا غلام لا ترتكب حماقة.

وشممت رائحة قتل. وبدت لي اللحظة مشحونة بعدالتها الخاصة، إلا أنني كنت جباناً.

كنا آنذاك نتحدث عن الوطن الدامي. عن السجناء والمعتقلين والفدائيين والشيوعيين والرصاص وأنشوطات الإعدام. وصرخت المرأة في وجهي: هذا لا يعنيني. أتفهم؟ هذا الهراء لا يعنيني أنا. إنه يعنيك أنت!

وراحت تدق بقبضتها على صدرها ثم على الطاولة: ما يعنيني حياتي. أن أعيش. أسافر وأرقص وآكل وأنام بهدوء. سئمت. سئمت هذا الجنون. ذلك الشرق المهووس الجامح.

وزعقَتْ: ماذا تريدون؟ قلب العالم! افتتاح عصر جديد! اقلبوا نفوسكم أولاً. كونوا حقيقيين. كونوا بشراً ثم اقلبوا العالم!

وكنت وحيداً، وخائفاً، ومهجوراً في هذه اللحظة المباغتة.

لم تكن هناك أرض صلبة. وكنا نغوص في هلام رخو، مصنوع من الاندحارات والآلام القديمة، وفوضى الدم. كان الوطن ينزف في العيون والأيدي والقلب، سجوناً وقتلى ومنفيين ومطاردين. كنا في زمن العنف والجوع والموت.

كلمتها الأخيرة ربما بدت مؤذية. وقعها كان مؤلماً وجارحاً. لقد هوت في حمى من الهيجان والازدراء. وتساءلت عما كانت تعنيه تماماً. كانت العبارة تصيب مركز الإعصار. اخترقتني كشرارة. وشالت صيحة. ولمحت زجاجة فارغة وسكين مطبخ. وابتدأ رأسي يتفجر بشموس وأشعة حارة. وتصاعدت الصرخة لكنني خنقتها.

ولأننا كنا محاصرين في مدينة غريبة، وكنت مباغتاً على ذلك النحو الغادر، شعرت بالخذلان.

في لحظة الوحدة المريرة تلك، كنت عاجزاً عن مدّ أصابعي نحو الزجاجة أو السكين.

وفي تلك الأزمنة كنت منفياً ومطلوباً أحتمي بها. وكنا نجتاز المدن والحدود بجوازات سفر مزورة تحت أجنحة الظلام. نطلب أماناً وبحاراً بعيدة وشموساً تمحو الظلمة من العيون.

وفي تلك الأوقات القذرة والضيقة كانت الأرض تضيق. وكان الأمان مفقوداً والشموس والبحار أنأى من البصر.

وإذ سألتها عن مرارتها وسلبية موقفها، اكتفت بالقول: أنا محايدة. فيما مضى ذقت آلاماً مريرة ولا أريد أن أتألم أكثر.

وقلت: ولكن نحن معاً. تألمنا معاً وهذا وقت الضيق!

وقالت: أنت في الخطر وهذا لا يطعم حباً.

وسألتها: أتتخلين في الزمن الصعب؟

وقالت: أريد حياتي.

وفي لحظة شطرني برق. اكتشفت أنني رجل هالك. كل تعاويذ

وصلوات ورقى العالم، كانت عاجزة عن إنقاذي، وفي رأسي سمعت صوت وتداعي جدران وجبال، ورأيت من خلال الشهب المتطايرة أشكال طيور بيض جميلة تتهاوى ملطخة بالدم.

وارتفع نبض الدم. كنا في لحظة عري، وكنت أرى نفسي عارياً ومنبوذاً في عراء أبيض. وقلت لنفسي وأنا أقاوم إيقاع القتل: أنت وحيد الآن والوطن في خطر.

وحدثتها بمرارة عن الوطن الدامي. عن السجناء والجياع والمطاردين. عن أطفالهم ونسائهم والليالي الحزينة التي يبيتون فيها وهم يتضورون جوعاً وذلاً.

كنت أعرف أنها تحب الأطفال وتشغف بهم. لقد قالت لي يوماً: إذا لم ألد منك يوماً طفلاً جميلاً وذكياً فسيموت أحدنا.

وداعبتها: لو لم تكوني عاقراً لكان عليك أن تلدي خلال هذه السنوات.

وصرخت بي كحيوان بري. اهتاجت وشتمت، وعندما هدأت قالت: الأفريقية كالأرض إذا رُويتْ جيداً لابد أن تخصب. العقر فيك.

ـ وإذا ما جاء سياسياً لأبيه؟

ـ سأكرهه.

لابد أن العصور العقيمة أقبلت. العصور التي يرفض فيها الأطفال أن يولدوا.

ما الفائدة من أطفال في أزمنة، الإنسان الحي فيها لا يصدق نفسه أنه مازال حياً في الفجر.

تبدو الأرض هاربة كغيم تطارده الريح. غير أن العشب والبحر كانا يختزنان غضباً في لون العاصفة.

وما كان بالإمكان آنذاك أن نفعل شيئاً جميلاً ووحشياً كاملاً. ما أتذكره أن تلك المرأة كانت جميلة وشهوانية، وبدلاً من لوحة

القتل التي راحت تتشكل في رأسي، رسمنا معاً لوحة المقايضة العضوية.

في السحر الأخير هبت علي عواصف البحر. رأيت نفسي أسبح في حقول من شقائق النعمان. حقول لا يحدها البصر. لم أكن وحدي في تلك الحقول. وكنت مغتبطاً مع البشر الذين يقطفون الشقائق ويغنون.

وجاءني رجل كأبي كان مضمداً من جراح فقال: أنت ترثني، من الدم تولد وإلى الدم تعود. وصرخت في وجهه: إليك عني هذه بحارنا الجديدة. وقال: لكنك ستُخذل قبل غياب الشمس. وانعطفت عنه. وغمرتني شقائق النعمان بملمسها الحريري. وجاء صوت الرجل من الأفق: لا تفرح فالله لا يحب الفرحين. وقال شيئاً غامضاً عن الندم والغفران وآثام الرحم. وصرخت فيه: مضى زمانك وآلهتك ماتت. وسمعت أناشيد وأغاني عذبة تصعد من المروج وتخوم البحر.

في الفجر كان الرأس مصدعاً ورائحة الخمر ماتزال راسبة. كنت مجوفاً والغثيان يصعد والمرأة نائمة. اندفعت إلى الحمام عارياً وفتحت الماء.

7

قبل أن تموت دونما صرخة أو احتجاج، كانت تثرثر وتعترف وهي مخمورة عن الوطن القديم: وطن الطغاة والبدو. لقد قطعت حبل السرة معه، وأصبح العالم الجديد غوايتها. لكنها كانت تسم هذا العالم الجديد بأنه كريه وقذر: عالم سلبي، متوحش، مشيأ وعنصري. الكلاب والقطط فيه أفضل من الإنسان: صدقني هنا الإنسان يتساوى مع الأحذية والمعلبات. ومع ذلك فهو أفضل من

عالم الصحارى. أتعلم؟ آ. أمر يدعو للجنون. كيف يحب الإنسان شيئاً حتى الهوس وفي الوقت نفسه يرغب تدميره. كيف هذا؟ هذا العالم شبيه بإبرة تسحب الدم على مهل. لقد جرثمني. أحس أنني مطوقة بغلاف يمنع عني الشمس والبحر والهواء. اسمع. أريد أن أهرب معك إلى نهاية الأرض. أأنت قادر على حمايتي؟ أرغب رجلاً يحميني. هنا الإنسان منهوب ومستلب. المرأة وجبة تؤكل ثم ترمى كالنفاية. عالم كلبي. العالم القديم زنزانة وهذا العالم حظيرة خنازير، فإلى أين يهرب الإنسان؟

وأنا أحدق في المرايا لا أصدق وجهي. أين لفح الشمس وملح البحر؟ أين النضارة وحيوية الروح؟ آه. يا للهبوب الخاطف فوق حقول الذاكرة. كتل من الصفيح والضباب تراكمت. لماذا تبدو الجهات مغلقة والإنسان ما عاد يرى؟

آه. آه. الطفولة. الطفولة. إلى أين رحلت؟

صوت نحيبها يخترق الغرفة. يلتقي برذاذ المطر الهاطل فوق المدينة الغريبة.

8

وكلاهما كان يطلب مرفأ. كانت تبغي بيتاً وأطفالاً وهدوءاً وحباً. وكان يبغي أماناً في كنف الخلجان التي هبت عليها العواصف. وبينهما كان الفاصل الأسود. صَدع الشرط البشري العصي على الرأب.

ولأمر ما كانا وحيدين.

وإذا سألها إن كان في قلبها مأوى، قالت: إن قلبي تحطم. وقال بأن الحزانى يستطيعون اتقاء الرياح في أزمنة الرداءة إذا تضامنوا. وكررت سمفونية الحياد والشوق إلى حياة شخصية

هادئة. وقال: لكن الحليب والهواء ملوثان. لم تدرك معنى العبارة. وأوضح بأن اثنين يمكن أن يفعلا شيئاً ما أفضل من الواحد: ألا ترين أنهم يقسموننا ثم يلتهموننا وجبة تلو الأخرى على مهل. وسألته إن كان يومئ إلى السياسة والحرب. فقال: أحكي عن الزمن. وقالت بصوت انفعالي: أكره الحرب: قتلت أبي ونفت أخي. وها نحن أنا وأنت شتات عبر دروب الأرض بسببها.

وبينهما تجثم بقعة عمياء. كلما اقتربا من حافتها يفترقان في شجار حاد.

ماذا تعني عبارة: في زمن العواصف كل البيوت معرضة لضربات الريح، فابنِ بيتك في الفضاء العاري؟

تلك المرأة كانت تفهم من العبارة فوضى التشرد.

إنها تقول: في دمك حنين لأجدادك البدو الرحل.

ويقول: آه. يا طفلتي، أنت لم تدركي بعد زمن الإعصار.

هذه المرأة عاقلة، تحلم بالسعادة: بيت وسيارة وأثاث وديكورات، وسلام لاهوتي.

وهذا الرجل شبيه بحصان البراري، يشمّ رائحة العواصف القادمة، ورائحة الدم المهتاج، ورائحة الفأس المسنونة الهاوية فوق أصول الأشجار.

يقول: أنت بيتي وأنا بيتك فلنتعاضد لأن الطريق شاقة والأمن مفقود.

وتقول امرأة المنازل المريحة: ماذا أصنع برجل رأسه مطلوب؟

ـ ولكن الرؤوس كلها...

ما فائدة شرح المشهد الخارجي. وما كانت وحدها التي تحدق طويلاً في مرايا الاستكانة. لقد تناسل ذلك الطاعون في دمهم

وخبزهم وآلهتهم. ميراث جرثومي جاءهم من تاريخ الملوك والخلفاء والطغاة والخصيان والعبيد والقتل والخوف والجوع، ومن ذلك التهليل الرباني للطوطم الموشوم ناراً فوق قلوبهم.

بدا ذلك وكأنه محنة في جذر اللغة، وفي نمو الشجر والماء والحليب، وصوت النبض القادم مع العصور.

لقد تجلى بينهم اغتراب وحشي، وصادم، يفصل الزهرة عن الجذر، والمجرى عن النبع. وفي تلك الأوقات الرجراجة ظهر الاختلاط بين الليل والنهار. وبدت الرؤية صعبة. لم تكن الرؤية وحدها. كانت الأمكنة أيضاً كالزئبق. وكان الناس قطعاناً داهمتها أفواج من الذئاب. كانوا في عصر الذعر والشتات والهلع الكبير، وبدا الزمن يدفع الناس والشجر والبحر والحجارة أفواجاً أفواجاً باتجاه المضائق.

9

ها هي ذي مسجاة على هذا الفراش المرشوم بالدم. باردة كحجر في شتاء، والصباح أوشك. وأنا هنا قربها أنتظر قضاتي. الحقيقة أنني لا أنتظر شيئاً. لا أعرف كيف أتصرف في هذا الوقت الداكن. لست مدركاً ما فعلت. إنني تائه في غمرة من الهذيان والتأنيب. بين الحلم واليقظة. ساقط في المجرى الرمادي لسريان الزمن. شبيه طوف يتقاذفه موج.

عندما أتساءل لماذا قذفت حيويتي العضوية بالسكين إلى قلبها ثم ضغطت حتى غاصت إلى المقبض، أشعر بالأسى لشيء واحد: لقد حطمت مأواي. وأحرقت سفينتي.

أنا الآن عارٍ في عراء ثلجي. لا شيء يحميني ويدرأ العواصف عني. لا أحد سيحنو علي بعد الآن في أماسي العصف والعزلة.

وهم يطلبونني قبل القتل. الرجال السرّيون المكلفون، يسعون هناك ويجدّون في أثرنا عبر الليالي والنهارات، بعد أن هرّبنا الوطن في الأحداق ومسرى الدم، في عصر النذالة والعار.

وأنا في غمرة آثامي الشخصية أشعر بالندم الخائف: ماذا لو عثروا على الآخرين؟

هم الذين يعرفون ماذا أفعل في المدن البعيدة. ولماذا أنا هنا مع المرأة التي ستفعل شيئاً من أجلهم وأجل أطفالهم الجياع.

إنني مكتئب من حماقتي. من هذا الشرك الذي وقعت فيه. من هذه الطعنة الخاطئة والمهووسة.

هل سيفهمون لماذا القتل؟ وماذا بعد أن أُعتقل هنا وأحاكم وأسلّم؟

لابد أن هناك خطأ شخصياً. في برهة الجموح البدوي نسيت المشهد الخارجي للقتل. وهذا التعويض الذاتي يبدو مخجلاً. ليس مخجلاً بقدر ما هو مفسِد ويستحق المحاكمة.

غير أنني أكتشف فجأة أن هذه الجريمة تصلح غطاء. أنت قاتل وتستحق السجن والإعدام وهذا كل شيء، ستقول لهم. تنسج وتدور وتنعطف. تحكي عن الفصام الشخصي والغدر. تمثل مراحل الجنون الدوري التي تأتي مع الأهلة وكسوف القمر. تحدث قضاتك عن اختلاط الألوان وأهمية الروائح الدافعة للهياج. ترسم لهم في مشهد الجنون المسرحي، خرائط من غضب البحر وجنون الصحارى في أوقات الزوابع، ثم تركز على الثأر البدوي للرجل المُخان: غسلاً للعار أيها السادة أؤكد لكم.

هكذا تتحول جريمة القتل إلى سد يفتدي الرجال المتوارين. الرجال الذين تطلب رؤوسهم أنشوطات الإعدام.

هو ذا الجنون قد أقبل. بالتأكيد ما عدت سوياً.

أقول والصحو مع الفجر يقترب: ألست أنا وهي والرجال الذين يطلبهم الطغاة، ضحايا هذه العصور المنحطة؟

10

كنا خارجين من فيلم «آخر تانغو في باريس». الفيلم كان يعرض في صالة شعبية في ضاحية مدينة ليون. كانت واحدة من هواياتنا، السينما. بعد الفيلم نتحاور طويلاً، وعبر الحوار نتعارف أكثر. هذا كان يحدث قليلاً في الرباط.

كان الشارع مظللاً بأشجار الدردار ونحن نعبر بين الظلال الليلية. حاولنا إيقاف سيارة، لكن الوقت كان متأخراً، والضاحية موحشة من الحركة. بدونا متباعدين في سيرنا وبيننا صمت. عبرتنا سيارات خاصة لم تنقلنا. كان الجو ضبابياً بارداً. وكنا في حالة خصام، وحزن. وأحسست أنها ترتعش من البرد. اقتربت منها فنأت متلفعة بقميصها الصوفي.

وفيما مضى، في المدينة الأفريقية المنسية، البعيدة، كنا نلتحم في الشوارع كقطين متداخلين يشع الآخر على الآخر حرارته. لابد أنها الآن مؤذاة. وفكرت وأنا مطوق بغربتي عنها: هل جرحها الفيلم؟ واستعدت مشهد الجنس الثاني وأنين المرأة المغتصبة تحت جسد رجل جريح، متوحش.

أنا الذي شجعتها لحضور الفيلم: إنه يشرخ بورجوازية أوروبا. كنت قد حضرته فيما مضى. ورويت لها مشهد الرقص وكيف عرى «مارلون براندو» مؤخرته لأوروبا الوقورة ولطقوسها البورجوازية المنحطة.

وقطعنا مسافة طويلة. كنا مانزال ملفعين بالصمت.

تذرعت بكذبة أن حذائي الجديد يؤلمني: لنسترح قليلاً.

وجلسنا على مقعد رصيفي.

ـ ها. أنت صامتة. هل يمكن أن أسأل لماذا؟

ـ لاشيء.

ـ ولكننا اعتدنا الحوار حول أي فيلم نحضره معاً!

ـ لم أرَ في الفيلم ما يستحق الحوار.

ـ أكان رديئاً لهذه الدرجة؟

ـ ليس فذاً بالشكل الذي قدمته. نهايته معقولة.

ـ «إمبراطورية الحواس» أفضل؟

ـ آ. أعتقد أنني تواصلت معه أكثر.

ـ ما الذي نفرك في التانغو الأخير؟

ـ الاستعمار. براندو كان يستعمر المرأة. كان يتشفى. هذا كريه لا يُحتمل.

ـ هل تساءلت لماذا؟

ـ أوه. يا للقذارة!

العبارة الأخيرة خرجت كطلقة. خرجت من أعماق مدمرة.

في فيلم «أوشيما» تقطع المرأة بالسكين الأعضاء التناسلية للرجل، وفي فيلم «برتولوتشي» تقتل المرأة الرجل بالمسدس.

العبارة التي صعدت إلى الحلق ولم تُقل كانت: لماذا أنت مكتئبة مادامت المرأة ثأرت؟

تلك العبارة ما كان يمكن أن تقال بسذاجة حيادية. كان لا بد من تفادي الشجار في الشارع.

وبدت الصدمة الذاتية تتخطى التعويض الموضوعي للمشهد الخارجي. بدت المرأة مهانة. صمتها وانفجار عباراتها، كانا

تعبيراً عن شعورها بأنها سيقت قصداً لتشاهد الفيلم وهي تحت شرط علاقة اختفت شمسها.

لابد أنه كان زمناً يرشح بالموت. كما كان راشحاً بعفونة تسد الأفق. كما لا بد أننا كنا نعيش رقصتنا الأخيرة في ذلك الزمن.

11

بين منفي وسجين ومطلوب ومدلى على خشبة الإعدام، كنا نحيا. الذين احتموا بخوفهم واستكانوا كانوا الشهود الصامتين. عصر البرابرة وأعداء الشعوب والفاشست كان يزدهر حقولاً من الدم والمشانق.

كان الحياديون يتواطؤون تحت وطأة رعب الجسد والمقايضة واللامبالاة.

وفي ذلك العصر الهمجي كان هناك تنسيق بين سلطات الحدود. تنسيق حول الفارين والناجين من المطاردة. ومع أننا كنا نحتمي بريح الأمان ونحن نعبر الحدود: ها قد نجونا أخيراً ولن تطالنا الكلاب، إلا أن ذلك لم يكن أكثر من وهم تعويض داخلي. تعويض عن الإرهاب المباشر الذي يلفحنا حريقه هناك.

عندما اعتقلوها في الرباط على ذلك النحو المشين، صعقت. كان الرجل المُطَارد قد أعطاها كلمة السر.

لقد اعتقلوها في الشارع الرئيسي بعد أن حاصروها بطوق من البوليس. المشهد بدا كشريط سينمائي. مشهد منحط ومبتذل ينفذه مُخرج من العالم الثالث.

في مركز التحقيق استُجوبت لمدة أسبوع. سألوها عن الرجل الغريب الذي كلفها بالمهمة. من هو وكيف عرفته وما هي مهمته.

وأنكرت معرفتها القديمة به. ذلك الرجل كان غريباً. تعرفت عليه في قطار عابر وطلب منها الاتصال بشخص ينتظره لأمر هام في مكان ما.

في المركز لم يصدقوها. هددوها بالسجن والتعذيب والضرب، واستمرت في الإنكار. أخبروا المفوّض الأمني الرئيسي. عندما جاء انفرد بها. كان السؤال الأول: لماذا تقومين باتصال مع أشخاص غرباء ليسوا من بلادك؟

وقالت: أنا لا أفهم في السياسة. رجل غريب تعرفت عليه في قطار. أعطاني تلفوناً لشخص آخر وهو ينتظره في مكان آخر. اتصلت. اعتقدت أنني أقوم بعمل إنساني. لست أفهم لماذا أنا الآن في شبكة البوليس؟

ـ ولكنك صديقة للرجل الغريب منذ زمن بعيد!

ـ لا. لا. أنا لا أعرفه.

وصرخ المفوّض: أنت تكذبين. أنت شيوعية وذلك الرجل منظم معك في خلية واحدة.

ـ أبداً. أنا لا أعرف ما هي الشيوعية!

تجهم مفوض المخابرات: نحن أبناء بلد واحد وأنا أعرف العاهرات أمثالك كما أعرف كيف ستعترفين.

الآن تروي ما حدث. تستعيده في البلد الأوروبي كما يستعيد مطعون طعم النصل في قلبه.

ـ حدث هذا من أجلكَ. لماذا؟ ماذا فعلت لأُهان على ذلك النحو؟ لولا أقاربي الذين تدخلوا ما الذي كان سيحدث لي؟

ـ أكان ذلك مقصوداً؟ عنيت هل قصدتُ إيذاءك؟

ـ رميتني في مأزق. المفوّض القذر أخذني إلى الضواحي وحاول اغتصابي لأعترف.

وابتدأ الرجل يدفع أشباحاً. طيوفاً من الألم والندم. بدا مؤذياً وآثماً. وهجست المرأة شيئاً عن المخدوعين والمأخوذين بتغيير العالم. شيئاً عن الأخيلة والأحلام والجنوح عن الواقع.

وقال الرجل: آه. الكلاب. كفى. كفى.

وإلى غرفتهما دخلت صور ورسوم البلدان التي لم ينهض بعد زمانها. البلاد الغارقة في الطمث والحليب والدم والنار والجراثيم. وتراءت صور أطفال يموتون في الأرحام. سدود تعلو في وجه الماء. بحار مغطاة ببجع أبيض يموت.

وقال الرجل بحزن: آه. ألا ترين أنهم يقتلوننا بانقسام الخلايا؟

وقالت المرأة: أنت أسير الأخيلة. متى تأتي الصدمة التي توقظك؟

وقال الرجل: آي. كفى إهانات رجاء.

وقالت المرأة وهي تبكي: لم أُذل في حياتي كما أُذللت في حبك. أريد أن أستريح. أريد أن أستقل. أن أتخلص من شراكك. أتفهم؟

وقال: أفهم. ولكن علينا أن نتماسك في أوقات الشدة. ألا ترين أنهم ينشدون تفسخنا؟ انظري كيف يجهدون لتحويلنا إلى مجانين ويائسين وعصابيين ومحبطين. إنهم يدفعوننا نحو حواف الانتحار والهذيان والجريمة ليسهل عليهم السيطرة علينا. في طول البلدان وعرضها انظري كيف ينحرف الثوريون نحو شيء آخر. كيف يتحولون إلى أعداء واتهاميين ومرضى وشاذين. هذا هو انقسام الخلايا. إننا نقتتل ونتشظى وهم يتفرجون. وهم يشمتون.

كنا نختنق بالنشيج. بدت مجروحة. لم تكن محصنة ضد المباغتة. وهكذا انخلعت نفسها على ذلك النحو الفاجع.

ـ انشرخ حبنا.

واستطردت: كل شيء انتظرته إلا هذا. لقد سلمتني إلى البوليس

بشكل رخيص أنا التي وهبَتْ حياتها من أجلك. أذللتني وحطمت حياتي وهي في يناعتها. الآن أبدو كأنني عارية في الساحات.

- أوه. يا إله الأبالسة والكلاب.

وفي تلك اللحظة كان هناك جواب واحد.

ارتجّت الأعصاب واندفع الدم. الدم البدوي اشتعل وبدأ يقذف قنابل ومتفجرات. كانت الكلاب تتمزق والمدن تشتعل والأرض تتحول إلى رماد.

وصاح الرجل المطل على مشهد الدم والحرائق: خطأ.

خطأ. ما حدث كان فظيعاً ولعيناً وأنت تعلمين أنني بريء لم أقصد إهانتك. تتهمينني زوراً. ومع ذلك هاأنذا أركع على قدميك طالباً المغفرة. سامحيني.

أحدهما قال للآخر: لقد خدعتني. لعلهما قالاها في وقت متفاوت. هي قالتها بعد حادثة الاعتقال، وهو قالها بعد أن تخلت عنه. الاثنان كانا مخدوعين. كانا مغتالين بوقائع الزمن المتراكمة. الميراث وتناسخه المعاصر. ولأنهما كانا حالمين أكثر مما ينبغي، وضحايا الميراث وسلالاته المنحطة، اصطادهما عنكبوت العصر.

داخل الطفولة الحالمة، بين العشيقة والعشيق، هوة مغطاة بعشب. في غفلة الزمن والهذيان الطيفي، تنفتح الهوة. عمى السقوط الداخلي يمحو معالم المشهد الخارجي، فيبدأ التأنيب. شيء ما يموت إذن. لقد بدأت الروائح تنتشر. لابد أن عصر البدو مازال الأقوى. لا. إنه عصر آخر، مزيج لا اسم له.

هل هو عصر القتلة؟ أم عصر الخيانة؟ أم عصر الأنذال؟

هو عصر اندحارنا في هذه اللحظة الرمادية، أنا والمرأة التي ما عادت تحب. المرأة التي فقدت القدرة على التعاضد. حدث خلل في

نبض الشرايين في هذه الآونة. وبيننا هوى طائر قتيل لم يرتكب ذنباً. هي تقول أنت القاتل وهو يقول أنت القاتلة. وهكذا تحت عصاب الاتهام كنا نبرئ القتلة الفعليين.

كم نحن حزانى تحت هذا الليل. الموسيقى ما عادت تصدح. والحنين ما عاد كما كان. لا مطر في سماواتنا. وصوت نوارس البحار ينبئ برحيل وشيك. لقد عدنا غرباء في المدن الغريبة. بصمت نسمع صدى تداعي جبل كان صلباً وشاهقاً فيما مضى.

12

عندما صرخت في وجهها سأقتلك يوماً، لم تصدق. هزئت من عبارتي وقالت: أنت عاجز عن قتل بعوضة. صفعتها بحنق. ندت صائحة: إنما أنت سافل ووغد. لماذا لا تصفع من قتلوك! وقلت: أنت. وصرخت: لست أكثر من جبان وهالك.

كنت هالكاً وجباناً، ولكنني كنت مخدوعاً أيضاً.

هذه المرأة خذلتني في الزمن الصعب، تخلت عني وأنا أنحدر نحو الهلاك، ضارباً في صحارى الأرض بحثاً عن ظل وأمان.

أتذكر. معها كنت قوياً وصدامياً. كانت دمي وقبضتي وصوتي الصارخ: اثنان معاً في أوقات الضيق أقوى. لكنها لم تبال. ما كانت تدرك إلى أي مدى وصلت وحشيتهم وضراوتهم. وعندما شرحت لها أنهم يلقون القبض على الأطفال ويفصلونهم عن أمهاتهم ليستسلم الآباء الفارون من جحيمهم، قالت: أنا لا أطفال لي.

ـ ولكنك ستحملين بأطفال مطلوبين وهم في رحمك.

ـ أنت تهذي. استفق. أرغب بيتاً في الجزر البعيدة عن الجراثيم.

ـ لكن جراثيمهم في الدم والريح وأصل الأرض.

وصرخت في وجهي ونحن نتناول عشاءنا: يا للقذارة. اسمع. أنا سئمتك. سئمت وجهك الناضح بالحزن والفجائع. هل نحن نحيا هنا أم نحن في مصح أمراض عقلية؟ ارحل عني.

وتوقفت اللقمة في الحلق. ابتلاعها بدا شاقاً. وفي العروق نبض الألم والقسوة. في المرآة المقابلة عاينت وجهاً كالصحراء. ومع أنني كنت محروراً ومرتعداً بأحاسيس خطيرة، إلا أنني ابتسمت ببلاهة متفوقة.

بعد صمت وفي عمق الذل الجائح، تهدّج صوتي وأنا أرى هذه المرأة الهالكة، الكريهة: أنا الآن فرح بكراهيتك. لقد اكتشفت سري فيكِ.

وإذا سَأَلتني بامتعاض ومقت عن ذلك السر، قلت: الموت.

واجتاحتني حالة رقص. غادرت الطاولة وبدأت أرقص.

وأنّبتني: لست في بلادك. عليك أن تكون مهذباً.

وقلت: التهذيب للمواخير.

واحتجت على بذاءتي. وسألتها منذ متى تجرح البذاءة شعورها فلم تجب.

كان واضحاً أن شيئاً لامعاً وكريهاً يتصاعد من مكان ما. شيء كان كامناً منذ زمن تحت الطبقات السفلى للأرض. شربتُ كثيراً ورقصت وانطلقت شتائمي بكل بذاءات العالم.

كنا في غرفة نافذتها نصف مفتوحة، وكان هناك سرير مغطى بالأبيض، وفوق السرير صورة عارية لامرأة أفريقية ترشح شبقاً، ثم هذه الموسيقى الوحشية.

ـ الموسيقى اللعينة كانت السبب. قلت وأنا مندمج في الرقص متملياً الوجه الأفريقي الشهوي.

هل قلت الشهوة. لا. عنيت الموت.

وكانت شظايا المدينة تتطاير في رأس مخمور، مُهان، هجره الحب.

وجاء موج البحر صاخباً ومجنوناً، ينكسر زبده فوق صخور رمادية.

ـ أتذكرين صخور البحر؟ ولم يكن ذلك سؤالاً.

وفي غمرة الرقص تحدثت عن أمور غامضة حول الحب والخيانة والثورة والكلاب التي ينبغي أن تموت في غمرة صخب القلب.

وكان القلب يصخب بأمواجه الدموية. ومن وراء البحر كانت تأتي أصواتهم الخافتة والمذعورة. أصوات الوعول المطاردة وقد حُشِرت في المضائق والخلجان. كانوا ينازعون واقفين في غمرة صمت العالم، وما كان لهم شفيع. وفي تلك الأزمنة كان الشعب مذلاً، مهاناً، يعاني وطأة الجوع والطغيان والأوبئة. وقالت المرأة: ها قد بدأت تثمل وتضيع. ما عدت متوازناً.

لابد أنني بدوت كمن يمثل دوراً على مسرح أغريقي. رقصي بدا نوعاً من تصريف مياه البواليع المحتقن في المجرات الداخلية.

غنيت ورفعت ذراعي باتجاه الشجر والفجر. عانقت الشجر الأخضر الرطب فاخترقتني رائحته. لابد أن وقتاً طويلاً مضى لم أستنشق فيه رائحة الضوء. كان الزمن الطاغي يغلق أبواب النهار. الليل وحده كان حقل المسرات الصغيرة. الكلاب الليلية الداشرة كانت تنتشر مع الغروب، وهكذا كان الليل يغلق حجراته علينا فنرتمي في العتم.

في تلك الأزمنة كنا نعيش على ضوء الشموع الخافتة. نشتهي الشمس ونحسد الحشرات الدّابّة في وضح النهار. العالم الحي المتحرك كان يظهر من خلال ثقوب أو مربعات صغيرة. وطويلاً كنا نرنو نحو أسراب الطيور الخافقة في سماء فسيحة زرقاء.

ـ أنت لا تعرفين ضراوة ألا يكون للإنسان شمس أو سماء.

وفي غمرة الرقص والهذيان المفتوح لمشهد البحر، تحدثت عن التوق لينابيع الشمس. عن شوق الإنسان للضياء بعد ليالي الظلمة والاختباء في كهوف معتمة لا ترى الضوء. وتحدثت عن عيني اللتين فوجئتا بالشمس بعد ليال طويلة من الظلمة. كيف انبهرتا وراحتا تدمعان. لا ما كنت أبكي.

كنت أستعيد الضياء المفقود. خيوط الشمس بدت في ذلك الأصيل شلالاً من نور انبثق من مركز ضياء العالم. عيناي كانتا تنغرسان في ينبوع الشمس المتأجج والملون فتتحولان من عيني وحش إلى عينين إنسانيتين، مسخت بؤبؤيهما ضراوةُ الرطوبة ومجرات العتم. وقلت للمرأة شيئاً آخر عن لقاء عيني بالشمس. شيء يشبه لقائي معها بعد غياب طويل. كيف بغتة ننصهر بانصعاق لذيذ، دافئ وعميق عمق الحب والضياء.

ثم قلت بأنني كنت أتكلم مع الشمس الغاربة: رجاء أيتها الأنوار الدافقة لا تغيبي طويلاً عنا. كنت أتكلم كطفل: سأكون حزيناً جداً لو غبتِ طويلاً يا شمس الله الجميلة.

آه. عندما غابت عاودنا الفقدان. ها نحن نعود إلى العتم والظلال والليالي المديدة. عيوننا لوداع الأشعة انفجرت بالدمع. كنا نبكي بحرقة أطفال رحلت عنهم أمهم.

لست أدري أين كانت وأنا أهذي. لابد أنني كنت خارج مدار الوضوح والاتزان. كنت مصعوقاً بضربة الزمن الفاشي. الزمن الوحشي الهاجم من مدن الشرق. الزمن القادم من صحارى النفط ومعاقل الثكنات.

ووراء مرمى النظر كنت أراهم. أشهد فرارهم المذعور. لم نودع نساءنا ولا أطفالنا ولا الأصدقاء. باغتنا الإرهاب فاعتُقل من اعتقل وقُتل من قتل وفر الباقون. كنا نفر عبر الظلام في الشوارع

الخلفية والأزقة. وعبر القرى النائية راحوا يجتازون الأودية كفهود داهمها الخطر، منحدرين نحو الكهوف والمغاور وأوكار الثعالب والكلاب الوحشية في أثرهم. لقد حنت عليهم الغابات وأكناف الصخور والوحش. وفي البيوت الشعبية الرطبة، خبأهم الشعب المقهور، الشعب الهاجع الآن تحت ركام الجليد والدم المخثر.

تلك الليلة كنت محموماً. هذا الانتظار الممض في أوروبا والرجل الذي سيستلم المهمة لم يأت. غودو اللعين لم يأت.

ثم هذه المرأة التي كانت عشيقتي ورفيقتي، وقد دمرتها المدينة الأوروبية والاعتقال فصارت عدواً. وأخيراً الذين ينتظرون على حدود الصحارى وفي أعماق الظلمة وهم يتضورون هائمين من وكر إلى آخر، وإذ ييأسون يخرجون تحت وطأة الجوع ليسلموا أجسادهم لأنياب الوحوش.

ـ أنا أكرهكِ أيتها المرأة. لست أكرهك إنما أشتهي تمزيقك. وفي تلك اللحظة كنت محمولاً على موج من نار. المرأة لابد أنها لمحت ومضاً في عيني. سألتني مرتعدة عن هذا البريق الذي لم تعهده سابقاً، ثم استطردت خائفة: ولكن أنا ما الذي فعلت لتكافئني بهذا الحقد؟

ـ أنت! تخليتِ في وقت الضيق. تضامنت مع خنازير العالم في لحظة الهجوم.

وصرخت: أيتها الوغدة. نحن الآن في المضائق نعبر ممرات الموت وأنت تشيحين. لماذا. قولي لماذا؟

صوتي كان عالياً. مزق جلال سكينة المدينة: أرجوك. لا ترفع صوتك. تذكر أننا غرباء هنا.

أحسست بدمي يتوهج. كان يرن كأجراس كاتدرائية في ليلة ميلاد.

ـ ماذا فعلت المدينة بك. فيما مضى كنت ناصعة كثلوج

المرتفعات. الآن أنت في لون المداخن. هاربة من الميراث؟ هاربة من دمك الملوث؟ ولكن ماذا هنا؟ لقد تشوهت. مزقك المد والجزر، فما عدت تعرفين وقت شروق الشمس من مغيبها.

تهدلت حزينة، ممرورة. على حافة النشج والصوت قالت: أجل. أجل. أعرف. ولكن أنتم؟!

ـ نحن. نحن الآن في مخاض الدم.

كم كان صعباً إيضاح الحالة. لا لغموضها واستعصائها إنما لتشابكها واختلاطات الماضي بالحاضر، وهذه الحالة من اليأس المستشري كوباء في أعماق بشر غلّهم الطغيان والإحباط وزفير الكلاب المسعورة.

كانت هناك حالة يأس ومحايدة وهروب، كما كانت هناك حالة تواطؤ ومقايضة وضعف. الرجال الذين نهضوا من صدمة العواصف، الخارجون من تحت الأنقاض واجتياحات الأزمنة العسكرية كانوا الآن يحاولون صد حالة الموت والانهيار. كانوا يخرجون من الرماد وفي أحداقهم ودمهم نبض الوطن القادم.

سؤال المرأة أيقظني. بدأت أُخرج من حالة الهذيان والرقص. بدا ذلك بمثابة صدمة أصابتني في مركز حساس. كنت منهاراً، ممسوساً بتلك الفكرة الكريهة. العادة القديمة التي ألهبتها الصحراء في دمي.

صحوتُ. انحسر موج البحر. فوجئتُ تحت انبهار الصحو بامرأة أحببتها وما أزال. امرأة بريئة تحتاجني وأحتاجها في الأوقات الضيقة. من أجلنا اعتُقلت ومن أجلنا أهانوها. هي ذي الآن هادئة وخائفة، ومغمورة بالحزن والمرارة.

وفوجئت. قبل لحظات كنت أتدرب على شجاعة الاندفاع لاحتزاز وريدها. والآن؟

الآن أشتهيها. أرغب اختراقها بالطريقة التي اخترقتني فيها بسؤالها.

تقدمت منها. طوقتها بحنو ثم قبلتها: آه يا وعلتي الجميلة إنما نحن ضحايا. هيا انزعي ثيابك ولننه نزاعنا في السرير.

13

كان شمسي. كنتُ ظله. وكنا معاً في مدار العواصف. أحدنا كان مخطئاً وربما معاً. وما كان ذلك اختياراً شخصياً. من الصعب فهم الحالة بانكشافها الضوئي. هناك كان ظل. وفي مكان ما كانت الشمس. نحن كنا في منطقة الظليل. وكانت الأعراب مُساطة بهذا الهزج اليومي، بهذا الاتساق الميكانيكي للزمن. كنا نبدو وكأننا حالة ما بعد الزمن. كنا نتحدث طويلاً. لا. بل كنا نحيا. ولأننا كنا ملتاثين بهذا الهزج، بدت حالة الفصام كأنها طارئة. لابد أننا كنا موهوبين لشيء جليل. الشيء الذي لا يُسمى إلا وهو يعلن عن قدومه الاحتفالي.

لقد قال لي يوماً: بيننا جبل وأنت عاجزة عن العبور.

وقلتُ: سأعبر.

وقال صاخباً: لا. الموت لا يُعبر.

وشُدهت. لست أدري لم كان مأخوذاً بالموت.

واستطرد: الإنسان يسقط أمام الموت كعصفور يصاد في غفلة وهو يغني.

وسألته: من أين تأتيك هذه الأمواج السود؟

وقال بغرابة: إنها في الريح. نحن مجتاحون الآن بالموت.

يومذاك كنا نتعشى في مطعم يوناني في الحي اللاتيني. طلبنا طعاماً شهياً. طعام الأرياف المؤلف من البطاطا المشوية واللحم والفلفل، وكان هناك نبيذ أحمر وموسيقى.

كنت سعيدة. هو معي الآن بعيداً عن مدار جنونه الدوري. إننا نفرح بمسرات صغيرة. كالأطفال نتجول في باريس. نذهب إلى اللوفر نهاراً وإلى المكتبات. وفي المساء سينما. نمر على البارات في أواخر الليل ونشرب النبيذ الأبيض، ثم نتشرد في الشوارع كغجريين هاربين من ضغط العالم. كان يبدو سعيداً وطفلاً في هذه الأوقات العذبة وداخل المدينة التي يراها للمرة الأولى. وفي تلك الأوقات كان يتحدث عن الأيام الجميلة والمستقبل الملون. في أواخر الليل نمارس الجنس باحتفال مبهج.

في المطعم اليوناني لمحت بغتة العاصفة في عينيه. أعتقد أننا كنا خارجين من فيلم (1900) الإيطالي لبرتولوتشي.

فجأة سألني: أرأيت الراية الحمراء كيف زحفت خلف العسكر المنتصرين؟

وقلت: رأيت.

ـ هكذا نحن باختلاف بسيط.

وسألته عن الشق الثاني من الجواب فقال: ستزحف رايتنا وراء المهزومين.

لست أدري لماذا لم أكن معنية بموقفه وماذا يفعل في ذلك الوقت. كنت مأخوذة به كرجل، رجل يحميني ويقدم لي الجنس في أواخر الليل. أنا المرأة الأفريقية التي تطلب معادلها الموضوعي: معادل الطبيعة.

وسألته بغرابة: أنت شيوعي؟

ورنا نحوي باغتراب. مرة أخرى لمحت الحزن والعاصفة.

ـ بعد كل هذه السنوات تسألين من أكون؟

وقلت: أنا أحبك كرجل وليس كسياسي. في الرباط لم نتحدث عن الأمر الآخر.

استُفِز. تناول كأسه وقذف به إلى الحائط فتهشم.

ـ انتبه. صرخت به: عليك أن تكون مهذباً هنا. نحن لسنا في بلادنا.

وصرخ كوحش: أنت محض حيوان جنسي. ليزهرْ وقارك فوق مزبلة.

ـ آه. يا إلهي!

أقبل نادل المطعم مرتبكاً. جابهه: سندفع الثمن مزدوجاً. هل يمكن أن أعتذر؟

وأطاع النادل: ولكن هناك الآخرين. هذا مكان عام.

ـ آسف. هل تقبل اعتذاري مرة أخرى؟

جمع النادل شظايا الكأس وانسحب.

تهاطل الصمت. موسيقى زوربا وهو يرقص على شط البحر. هذا الرجل بدا خائباً بمرارة سرية. أنا كنت باردة. طافية فوق بحار غدرت بي أعماقها.

وهو يعود من حقول مرارته سألني: أية امرأة أنت! إنك تتشفين مني في البلاد البعيدة. لماذا يحدث هذا؟

قال ذلك بغصّة وما كان بإمكاني أن أجيب.

بعد صمت قلت: اسمع. أنا أعيش حياتي كما أراها ولا شيء آخر. ما عدا هذا إلى الجحيم.

وسأل: هل مات حبنا؟

ونظرت إليه ملياً. لمحت الدمع في عينيه. جافتني القسوة

وتراخى موج الكراهية. قلت: هيا لننهض. أنت متعب وينبغي أن ترتاح.

لابد أننا كنا في حالة دفاع عن النفس. نتّقي موج البحر الهاجم بينما الأزمنة البربرية تكتسح اخضرار الغابات في هذا الوقت الخريفي من التقويم. وكانوا قد طلبوا منا أن نتوارى ولكن بفعالية. في الساعات القادمة ستبدأ المذبحة. إنما ينبغي القيام بعمل ما عبر صعود الدم.

وفي طول الأرض الصحراوية وعرضها كان هناك هرج وصخب وأعراس. هرج انعقد كغبار فوق الثكنات وأقبية التعذيب، وصخب قَدِم من حقول البترول التي تأججت نيرانها في ليالي الأعراب الذين دقت طبول أعراسهم أخيراً.

كنا خائفين. لكننا كنا حزانى أيضاً. في لحظة الفتك المباغت أدركنا الخديعة. كنا مزقاً. لابد أننا بدأنا نفهم ونحن نرى شفرة السكين تهوي فوق الأعناق.

ولكن ها هي ذي المدن تزدهر.

إن أضواء النيون تبهر البصر. على طول الشوارع تمتد المخازن وفنادق الدرجة الأولى والملاعب الرياضية وكهوف الرقص العاري.

المدن تزدهر.

ووراء الشوارع المضاءة والصاخبة، امتد الجوع واليأس وأكواخ الصفيح والوحل والكوليرا والطاعون والموتى الذين لا يجدون قبوراً لهم.

وها هم يشربون نخب الدم. إنهم منتشون وهم يستبيحون

الأجساد العارية، وهم يرفعون حساب أرصدتهم في البنوك، بينما فرق الاغتيال السرية تنفذ مهامها الوطنية تحت ستارة الغسق.

ولكن...

هل كنا مخدوعين، أخذنا على غفلة من أمرنا؟ أم كنا ضعافاً ومقهورين؟ أم أن الزمن كان ملغوماً في نفوسنا؟ أم أننا كنا نحلم أكثر مما ينبغي؟ أم نحن مانزال في عصر الشتات؟

إن عصر الجوع والألم والإرهاب يقول شيئاً آخر. عصر اليأس والهلاك واللامبالاة ومضغ القات والحشيش والأفيون يشير بالاتهام.

آه. نحن الذين نتسربل بالمطاردة والنفي وأقبية التعذيب والمحاكمات وتوقع الموت.

14

هذه المرأة لم تكن تدرك المشهد. منذ العصور الأولى وأنا أشرح لها. أنت ملتاثة بالغرب والشرق جرحك. نحن نبني شيئاً آخر مغايراً. إذا أدركنا علاقة الرغبة الداخلية بالمشهد المحيط، وإذا أقمنا توازناً صحياً ما بينهما، نستطيع أن نوقظ الشمس. نحن خارجون من كهف، والملاذ ليس كهفاً آخر أكثر إضاءة. الشمس تقع الآن في مكان ما بين الشرق والغرب، وعلينا أن نتجه نحوها لا بجاذبية الغريزة إنما بنور الرأس.

كانت مستغرقة في تركيب الطبيعة، مأخوذة ببريق الجمال الخارجي وكهوف الغريزة وهذا الانبهار الخاطف للّذة.

بين أصابعها تتحول الأشياء إلى مخمل وورد وجسد. وفي عينيها تلوح بحار ومنازل وسيارات وأسفار. وتحت قدميها تلمع قاعات الرقص.

- مرة واحدة أريد أن أحيا. أنا خائفة من الموت.

- الموت؟

- أجل ينبغي أن أستمتع قبل أن أموت.

- ولكن الموت لا يداهم غير الحزانى والفقراء في هذا العصر ياعزيزتي.

- أية فلسفة سخيفة!

ما كنت أود قول ذلك بهذه الصيغة. فقط نويت الهزء بها. كنا في ضاحية من ضواحي الرباط. تحتنا المدينة، وبعيداً لاحت الأضواء الساطعة. كنا مستلقيين على سفح هضبة. كنت أحدق في النجوم والسماء العارية. أستمع إلى صوت الجنادب وأشعر بحرارة وحنان الأرض.

في مثل هذه الأوقات من أزمنة خلت، كنا نهرب إلى الغابة والشواطئ. نغني ونمارس الحب الوحشي. وفي تلك الأزمنة كانت هذه المرأة حارة وحنونة كالأرض.

إننا نجلس الآن على حافة ساقية بلا ماء. تحتنا الحصى والعشب اليابس، وحولنا منازل الضواحي المهجورة. لا شيء يقال. لا شيء هام. بيننا مسافة وصمت. أحدنا يدخن والآخر يحصي النجوم. مغموران بالندم وحسّ الشتات وهذه الحالة الشفافة من الفقد.

هدوء. ليل ساج. وهذا الطائر الليلي الذي وقف فوق صخرة وراح ينعب. شيء ما يموت في مكان ناء.

- هل نسير؟

وسرنا. وتحت هذا السحر الباهت لم تشتبك أصابعنا، ولا جرينا فوق الدروب. أحدنا كان يدندن أغنية شعبية حول الكذب والخيانة، بينما الآخر يحلم ربما بعلاقة جديدة خالية من الحزن والملل.

سرنا أيضاً بين البيوت البيضاء. سمعنا احتفالاً راقصاً. في أحد البيوت كان هناك عرس. كانت الموسيقى والأغاني صاخبة وسعيدة.

أحدنا ودَّ لو يدخل إلى العرس. وكان الآخر يعدو راكضاً مخترقاً ضواحي المدينة. بعيداً، بعيداً نحو حدود البحر.

من الصعب تحديد جوهر التفجير. معرفة مكمن الصاعق الذي أودى إلى هذه الحماقة. لست أدري إن كنت خائفاً آنذاك أم كنت أدافع عن حصوني التي تصدَّعت!

لاشك أنني كنت مهزوماً في ذلك الزمن. مطارد برياح في أرض عراء. ولأننا كنا مشتتين ومخدوعين وعراة، كانوا هم الأقوى. وكان عصرهم الدموي يزدهر. ولكن لماذا دوهمنا على هذا النحو العاري والمهين؟

ها نحن نركض ونصيح عبر شعاب الأرض. نطلب أماناً ولا أمان. وراءنا القتلة والصحراء عارية. إن القلب ينبض والعروق نافرة. لقد تحول الدم إلى الأزرق، ولكن الصحراء لا تجيب.

آه. عما قريب قد ينفجر القلب.

كنت أقول للمرأة النائمة الآن في سرير عرسها: مع من أنت الآن؟ مع الكلاب أم مع الوعول الجريحة؟

وكانت تقول: أنا! مع نفسي.

وأسألها: ما هي نفسك؟

وتقول هازئة: السعادة!

وأسألها: أحقاً تنتظرين السعادة في الزمن البربري؟

وسألت: ما معنى العبارة؟ بدت مندهشة بهذه الأوهام التي قالت عنها مرضية: من أين تأتيك هذه الأخيلة الغريبة؟ وعندما بدأت

أشرح لها شيئاً غريباً عن النذير الفاشي الذي يقرع أجراسه في سماوات العرب، بادهتني بالتأنيب. اتهمتني بلوثة وهستيريا سمتها حقد الطبقات.

كنا نعبر الآن تحت قوس النصر باتجاه برج إيفل.

إنها تمطر. ونحن نتلقى هذا الرذاذ العذب داخل مساء باريسي.

لقد خرجنا قبل لحظات من فيلم «إيمانويل».

- فيلم بديع أليس كذلك؟ هي سألتني.

- آ. كان المخرج مبدعاً حقاً في اختيار أوضاع المضاجعة.

فوجئت بالجواب: إنه يشرح أزمة امرأة مصابة بعقدة الهياج لدى أي تماس عضوي. امرأة مشروطة بجسدها.

- لكن الأحداث تجري في «تايلاند»!

- بلى. تايلاند الغابات والأنهار والنساء العاريات. ألم تسمع بأغنية: أوه تايلاند يا جزيرة اللذة؟

- لا. سمعت أن في غابات تايلاند حرب عصابات شيوعية. أنت هل سمعت بشيء من هذا؟

لم تجب. داخل صمتها انزوى امتعاض. تحت المطر المسفوع بالريح ثرثرتُ عن حياد المخرج عما يجري في غابات ووديان تايلاند، وكيف يصور شعباً يناضل ضد اليانكي وكلابهم، بأنه شعب غارق في الأفيون والجنس والمقامرة والجريمة.

هذه المرأة منتشية بالمطر. مسامها تتفتح تحت هذا الليل البليل، وتحت تأثير مشاهد «إيمانويل» المثيرة للأعضاء والدم. لابد أن ثرثرتي اللا تطاق تعكر مزاجها.

برج إيفل لا يلوح. اختفى رغم ارتفاعه وراء العمارات. مؤكد أننا تهنا ونحن ندور في دهاليز الميترو والشوارع الخلفية الضيقة. نهرب من المطر لاجئين إلى الأرصفة المحاذية للجدران. على أغصان الشجر تلتمع القطرات حبيبات من الماس.

- لو لدينا سيارة. انظر ما أجملها!

كانت تشير نحو معرض سيارات في «الشانزليزيه» وكنا قد انعطفنا في الشارع العريض الصاخب والمضاء.

فجأة دخلت قاعة المعرِض. سيارات «البيجو» و«الفيات» المصقولة تمددت كنساء أميرات.

إزاء هذه الأنساق اللامعة والملونة، وقفت مدهوشة. مسحت على سطوحها ومقدماتها وهي تكتم شهقة.

- يا إلهي. كم هي بديعة!

لم تستطع المقاومة إزاء المشهد الدعائي. برفق فتحت باب سيارة بيجو 504 موديل 76 واستوت خلف المقود. تفحصت الواجهة الداخلية وراحت تحرك المقود. بدت مأخوذة. مطوقة بغلاف ورغبة امتلاك سيارة تعادل رغبتها في امتلاك رجل.

ومن وراء الزجاج رآها عارية. تتوسد سريراً أبيض مغلفاً بستارة بيضاء شفافة. جسدها في لون شمس الغابات، وعلى السرير انعكست الظلال الراقصة للمغيب.

- إيمانويل. إيمانويل.

امرأة ورجل في سرير جنسي. لعبة قديمة، مستهلكة. كم تبدو مضجرة وهي تتبذل على ذلك النحو البورجوازي الضحل.

- ما عاد لديهم إلا هذا السيرك. إنهم ينزعون الأحشاء الداخلية بابتذال.

وقالت المرأة: ولكنهم واقعيون.

- واقعيون؟! والبطالة والاحتكار والتمييز العنصري وانفجارات العالم الثالث. إسرائيل وروديسيا والتهديد النووي وأيار الـ 68. هذه أوهام؟

- ليس بالسياسة وحدها يحيا الإنسان. نحن مختنقون بهذا الوباء على ما يبدو. هم اجتازوا مرحلة النقاهة إلى انتعاش الجسد.

- طوبى للجسد تحت غيوم هيروشيما.

نخرج من قاعة العرض. الضوء والمطر اللامع فوق الحجارة السوداء. في السماء قمر باريسي لا يختلف عن كرة من النيون الأبيض. المرأة مكتئبة. خرجت وحيدة وظلت «البيجو» في القاعة. وهذا الرجل المشحون بالوباء الطبقي يبدو كريهاً الآن تحت هذا النيون الفضي داخل هذه المدينة المصقولة.

نحن الآن منقسمان. نمارس تواطؤاً تحت صمت واجف. نتقدم وننعطف بعيدين بحثاً عن برج إيفل.

فجأة يشعر الرجل بدوار. يتكئ على جدار لاصقاً جبهته برطوبته.

التعب، والصداع من هذا الدوران الأبله.

رأيت في عمق الجدار مدينة كريهة. غامضة وثقيلة وغريبة ترزح فوق أضلاعي. ما كان قادراً على تهشيم ملعب السيرك وكرات النيون وقاعة عرض السيارات. كانت الثكنات بعيدة، وآبار البترول تشع فتصل أضواؤها إلى «الشانزليزيه».

لكن الموت كان قريباً.

لابد أنني واقع داخل شبكة من الحجارة والإسمنت والحديد، والأصوات واللمعان والقيء. ساقط في هذه اللحظة تحت تأثير أخيلة هبّت عليَّ من الصحراء والغابات.

كنت الآن في دوار البحر. وكان البحر يصعد في الدم وأنسجة الرأس. وكنت راغباً بشيء ما لم أجرؤ على الإفصاح عنه. وداهمني ميل حاد لجرح مكان ما في جسدي. جرح يخرج منه هذا الألم الكامن في الخلايا. ذلك الرجل المسمى أبي كان يكوي أو يفصد

الإبل في الصحراء عندما يداهمها الوباء. البدو أيضاً يفصدون الجسد الفاسد بالنار. البدو والإبل كانوا يموتون بالفصد أحياناً.

ـ متى يأتي زمان الفصد؟

آه. كم أمقت هذه المدينة مقتي للصحارى. بينهما تشطرني هذه المرأة التي انفلتت مني. هذه المرأة التي صدّعتني وأنا أتجه تحت ضياء الشمس نحو البحر.

ومازلت أسأل: لماذا خذلتني وخذلت نفسها ونحن في منتصف الطريق؟

15

الديكور الخارجي كان فاتناً. لكن الأعماق كانت موحلة. بدا الماء مسمماً كذلك الهواء. وفوق النفوس الكتيمة لوحظ تراكم طبقات من الغبار والصدأ.

الآن. هو ذا عصر الجنود يجتاح طبقات الحليب. في زمن الغفلة سقط البشر فريسة الرعب وأنشوطات الإعدام.

وكانوا أسرى الجوع والألبسة وصراخ الأطفال، وأسرى الاستكانة.

ومع أن السماء كانت عارية والأرض تختلج، إلا أنهم كانوا يسبّحون للرعد القادم داخل الغرف المغلقة. داخل الغرف الواقعة تحت المراقبة والتطويق.

تحت ذلك التوقيت الشرير كنا معاً.

إننا نعيش حالة عشق من نوع خاص.

الزمن صيف وغابة مدينة «ليون» خضراء ورطبة، نعبر بين ممرات الزهر والحدائق، نرى فراشات وشمساً وعشاقاً

يتخاصرون. ننحني فوق سحابة من ورد فيشم كل منا رائحة الآخر.

نتذكر مدينة الرباط. حدائقها ،أصداف البحر. الزمن الذي كان في طراوة الندى وشفافية الأصائل.

الآن يبدو ما مضى وهماً وخداعاً. الحقيقي والصلب الآن، هذا الذي ينثرنا عبر دروب الأرض.

نمشي معاً ونحن متباعدان. بيننا تمتد مجرات وصحارى وحراب مسنونة وأرض محروقة. نعرف ذلك من أسراب البط العابرة. نجلس على مقعد أخضر في عمق الغابة. نتأمل أعماق الشجر ولمعان الشمس على سطوح الأوراق. طيور صغيرة تزقو وتقفز فوق الأغصان. جذوع الشجر سوداء مجرحة بالزمن، والسواقي ضحلة. ثمة طحالب على أطراف المياه الراكدة.

- هل في الغابة شجر مثمر؟ أسأل بتلقائية.

تقول: لا. شجر للظلال.

عن بعد نرى فتى وفتاة على دراجة. ملتحمان بوداد عذب. يتوقفان. يسند الفتى الدراجة إلى جذع شجرة يتخاصران موغلين في عمق الغابة.

- متى تسافر؟ تسأل فجأة.

- قريباً. غداً أو بعد غد.

ريح خفيفة تحرك الأوراق. تحمل الريح حفنة من ورق أصفر وترميه فوق سطح الماء الآسن.

إذ يضع زنده على الحافة العليا للمقعد، تلامس أنامله كتفها العارية. كتف باردة. رطوبة الغابة تثير الشجن والغبطة معاً. إن رائحة الغابة تطغى على رائحتها. رائحة جسدها والجلد الطري، غطتها رائحة الشعر المحروق بالأوكسجين.

فيما مضى كانت رائحة الجسد تذكر بعبق جسد الأطفال.

هكذا كانت في مدينة الرباط في زمن مضى. الآن رائحة المساحيق هي الطاغية. ولابد أنها تثير حالة غثيان.

ـ لماذا تشوه المرأة الجميلة وجهها بالمساحيق؟

ـ أتكره الزينة؟

ـ لا أكره ولا أحب. إنني أسأل.

ـ الماكياج جزء أساسي من حياة وجسد المرأة المتمدنة.

كان من الممكن أن تنعطف الحوارات الخاطفة، الحوارات الخاوية، نحو أي شيء آخر. معظم الوقت يمضي في الصمت، داخل هذا الحياد البارد المستلقي على سطوح الأشياء.

ولنخرج من حصار الضجر والمقت السري واصفرار الأوراق المقذوفة بالريح، نهضنا صوب البحيرة.

في طريقنا مررنا بمقهى. جلسنا باهتين. طلبت عصيراً وطلبت بيرة. كان المقهى مفتوحاً على الشجر وعلى ساحة يلعب فيها أطفال.

ـ انظري! وعولك الصغيرة.

وامتعضتْ. وجهها شفّ كراهية.

ـ ما عدت أحبهم. عبء.

ـ كيف؟ كنت تعبدينهم!

ـ أنانيون. يستأثرون بالحرية.

ـ كنا مثلهم.

ـ هذا لا يبدل من الأمر شيئاً. انظر إليهم كيف يتشاجرون من أجل الملكية.

كانت تراقبهم وهم يصرخون ويجرون خلف كرات صغيرة.

حتى الأطفال تحولت عنهم، هي التي كانت تحلم بطفل حلم العشب بالندى.

ـ ننهض؟

ونسير. ظلال الغابة تنشر غلالة صقيع. توارت أشعة الشمس خلف الأشجار. كنا نسمع زقو طيور البط ولا نراها.

ـ بردانة.

ـ خذي المعطف.

ـ لا.

وشبكت ذراعيها معاً تحت إبطيها.

وصلنا حافة البحيرة. ذعرت طيور البط. ضجت بين أنصال البردي ثم نفرت.

كان الأصيل أسيّاً فوق الماء الساجي، وعلى الحواف نهضت الأعشاب.

ـ هل نجلس هنا؟

واخترنا منحدراً معشباً.

رطوبة العشب والبحيرة أنعشت زمن الرباط الرطب. حكايتنا القديمة ونحن أطفال نجري على السواحل ثم نوغل في الغابات. نلعب الحب عاريين داخل كهوف البحر الصغيرة، نجمع الأزهار ونطارد الفراش. نتشاجر ونبكي ونحن نسمع صوت البحر.

ـ هل البحر يبكي أم يغني؟

ـ احك لي حكايات عن الصيد وجنيات البحر.

ـ في قديم الزمان كان هناك صياد فقير يذهب إلى البحر ومعه شبكة صيد. وذات يوم ألقى شبكته فعلقت بها سمكة نصفها امرأة ونصفها سمكة.

كنت أروي حكاية جنية البحر التي أصطادها الفقير، والتي هربت إلى البحر فأصاب الأطفال حزن كبير عليها.

ـ لكن لماذا عادت إلى البحر؟

ـ عادت إلى بيتها. الناس هل يسكنون البحر؟

ـ لماذا لا نأتي بشبكة ونصطاد جنية البحر؟

ـ أنت هنا.

قدماها العاريتان تداعبان الموج. حتى منتصف الفخذين كان ثوبها محسوراً. الأشعة وقطرات الماء تتلألأ على منحدر ساقيها. كان الوجه الناصع وهي مستلقية على حافة البحر يستقبل منابع الشمس التي توهجت في ذلك الضحى.

ـ ماذا تقول الشمس للبحر؟ وتضيف: أنت. ما الذي تحب من عالم البحر؟

ـ طيور الجزر المهاجرة.

ـ أنا أحب المراكب ومصابيحها الليلية.

في ذلك الزمن كانت الرباط مدينتنا. داخلها كنا متواشجين كأعشاب صخور البحر. كالأطفال كنا نفر من صخب المدينة وعيونها الزجاجية. نجري في البراري وحول الهضاب. نجمع الأصداف ثم نتعرى وننام تحت أشجار الدردار وبين الملاجئ الصخرية.

ـ هل أحببت الغرب؟

كنت أرقب أسراب البط السافّ فوق بحيرة «ليون» الساجية.

ـ الرباط كانت ساحرة. ذكراها عذبة ومؤلمة.

ـ ولكن العرب... وسفَّها امتعاض. ريح سموم هبت من داخلٍ معتكر، انعكست على وجهها الحيادي.

بدا رأسها مشروخاً كصخرة ضربتها صاعقة. هي الآن غريبة، معادية، مهدمة تحت سيلان الأصيل الغارب.

كانت ممددة فوق العشب. رأسها فوق فخذي، وعيناها راسيتان في فراغ سماء رمادية. في رأسي هبت رياح مدينتنا البعيدة.

وداهمني حبها القديم. وددت تقبيلها وضمها واعتصارها داخل أضلاعي. وجهها وعيناها العصفوريتان، حملتها رياح ومساءات الرباط داخل سحابة ملونة، دافئة.

وأحسست بقلبي ينبض شغفاً. موجات من الحنو والحب المفتقد راحت تصدم صدري. وغالبت خذلاني وانهيار خلاياي، وهذا العصف المدوي. وجاءتني صورهم وعيونهم وإعياءاتهم ومقابرهم وسجونهم وفراراتهم من قبو إلى آخر، ومن حي إلى حي، ومن قرية إلى قرية، والكلاب في أثرهم. ظهروا في لحظة الدفء والحنان الدافق، داخل السجون والمنافي وأنشوطات الإعدام، يقضون. هذه المرأة بدت لي غريبة عنهم. قلبت ظهر المجن لرياح المحن السوداء، واختارت الأيام البيضاء، والثياب البيضاء، والأسرة البيضاء، والسيارات البيضاء.

على ضفاف البحيرة كنا اثنين. امرأة من القطب ورجل قادم من خط الاستواء. بيننا كانت اللغة غريبة. كذلك الجسد. كنا تحت عصر يترنح وينهار كجبل من جليد.

وغمرتني كآبة قابضة حملتها النسائم. جاءت من اصفرار الشجر ورحيل البط والشمس الغاربة، ووجه هذه المرأة الشبيه بصخور البازلت. كنت أدخل الآن في اشتباك لعين مع طيوف ذات رائحة كريهة. جراثيم وأوبئة وافتقادات. روائح عصور موحلة، وروائح أجساد تتفسخ، وروائح كلاب وخنازير، وأقراش بحر.

من الريح والعشب وشقوق الأرض الخفية، وجسد هذه المرأة، كانت تلك الروائح تخرج.

لقد سقطتُ أخيراً تحت سطوة الموت. اجتاحت الروائح جدران الخوف. أعماقي غزتها بروق وفيضانات ونيران.

هي ذي الأزمنة المختلة تنفجر.

وها أنذا أعبر المطهر باتجاه الجحيم.

لابد أنني كنت مخموراً جداً ومعتوهاً جداً وأنا أطعن.

نثار دمها أيقظني، لكنها كانت قد ماتت.

الكلمات التي قيلت قبل عرس الدم لا أتذكرها. كانت مشحونة بجراثيم كراهية.

في رأسي حشرجاتها وهي تنازع. غير أن القتل كان ضارياً أكثر مما ينبغي. كريهاً أكثر مما ينبغي.

وأنا أصحو في هذا الفجر جاثياً قربها أتساءل: أكان ينبغي أن يحدث ذلك؟

عيناها مغمضتان، وجسدها هامد. سَكينة صماء تخيم عليها وفي أعماقي حالة اختناق مسكونة باثم.

كان هناك خلل ما. خطأ في بوصلة التوجه أو خطأ في تركيب الدم أودى إلى هذه الصدمة.

آه. لابد أن المشهد كله كان عارياً وفاجعياً ورمزياً بما فيه الكفاية.

بيروت *1976*

الطيور الغريبة القادمة مع الفجر

يلزمني وقت كي أفهم ما حدث. كي أوضّح هذا الذي يحدث. ليس ليلاً ولا نهاراً. ليس صيفاً ولا شتاء. هو الآن وفيما بعد. إنه حالة خاصة من حالات الصحراء.

يبدو أنني ممدد على سرير أبيض، تحت سقف أبيض داخل هدوء هو الآخر أبيض. ومن المكان تخرج روائح بيضاء.

وفيما مضى أذكر كنت جائعاً ومريضاً، ومغتاظاً من أمور غامضة. وعلى ما يبدو لي كنت واقعاً في شرك، لا أذكر متى وقعت فيه. لم أكن وحدي. كل الطيور البيضاء القادمة من الصحراء، بدت وكأنها وقعت في ذلك الشرك.

الآن أنا أحلم. لا. ليس حلماً. إنني أرى ولكن بصعوبة. تبدو الغرفة ضيقة لا تكاد تتسع لأكثر من هذا السرير الضيق، وأنا أرغب الخروج من هذا الضيق. أحلم بالخروج من الأشراك التي تلتف وتضيق. آه. إن جسدي على ما يبدو يعاني حالة اختناق.

عندما يكون بإمكاني فتح أجفاني، أستطيع أن أرى عموداً في أعلاه زجاجة مصل. كما يمكن أن أرى بقعاً حمراء معلقة وأنابيب. حولي تتحرك حمائم بيضاء صامتة وأنا ممدَّد في وضع يبدو مريحاً.

يا للبحر كم يبدو بعيداً الآن. آه. ليس البحر. شيء يشبه البحر.

لقد بهت الضوء. ثمة طيوف كالنقط الملونة تبدو في سماء بعيدة ترتجف. إنني أبحر مبللاً تحت مطر حار يتفجر من جلدي.

المدينة

قلت للممرضة التي حضرت: متى أستطيع الخروج من هنا؟

قالت: متى شئت.

قلت: ولكن هل يحق لي الخروج؟

قالت: يحق.

قلت: ولكن إلى أين؟

ضحكت الممرضة من سؤالي الأبله. سألتني عن بيتي وأصدقائي فقلت: لا بيت لي ولا أصدقاء. قالت: إلى أين كنت تأوي فيما مضى؟

قلت: إلى الحدائق وأبواب البحر!

قالت: لنخرج إلى الحدائق وأبواب البحر.

غمامة بيضاء تلفّنا ونحن نجتاز الصحراء. إننا نعبر الفضاء باتجاه المدينة.

على أبواب المدينة يواجهنا حارس مسلح. بعد تفتيش دقيق يطلب من المرأة الدخول إلى حجرة سرية، ثم بعد وقت يسمح بالدخول.

مدينة غريبة. غبار وضوضاء وأصوات طلقات. زحام يذكّر بالحشر. البشر يبدون في زي جنود. فضاء المدينة غبار ممتزج بالشمس ومن الهواء تفوح روائح البارود.

ـ آه. إنني أختنق. أين الحدائق والهواء؟

تقول الممرضة همساً: تحولت الحدائق إلى عمارات والهواء يعبّأ ويُباع في السوق.

- رأسي مهدد بانفجار الشمس. أين الشجر والماء؟

تهمس الممرضة: تحول الشجر إلى هراوات وأعقاب بنادق وتحول الماء إلى مصل.

قلت: أين أنا؟

قالت: في المدينة التي صمدت في وجه الغزاة.

قلت: ولماذا يبدو على الناس الحزن؟

قالت: صه. باركِ المدن الصامدة ولا تكثر من الأسئلة التي تورث الغم.

في سري باركت المدن التي تصمد لأعدائها. وفي سري حزنت للناس الحزانى. وعبرنا.

قلت: إلى أين الآن؟

قالت الممرضة: نعبر السوق.

على المداخل ازدحام. بشر في أرتال. يحيط بهم جند مسلحون. وأمام الحوانيت والمتاجر جند وتجار، وفوق الرؤوس ارتفعت السلع والأصوات.

قلت للمرأة الممرضة: ما الذي يجري هنا؟ قالت: بيع.

قلت: ولماذا الزحمة؟

قالت: ثمة فقر في الدم والهواء.

قلت: وماذا يفعل الحشد؟

قالت: تجار الحرب يبيعون الدم والهواء.

قلت: آه. إنني أختنق. متى ينتهي هذا المصل؟

كانت الأرض غباراً. ومن كل مكان فجّت رائحة الفساد

والشمس والبارود. لم أكن أعرف أين أنا ولا ماذا أفعل ولماذا جئت المدينة وما الذي يحدث لي في هذا المشفى. وسألت الممرضة عن الحالة، فحدثتني عن الآميب والدود الذي يتشكل من تفسخ الأشياء وتعفن أمعائي التي تحتاج إلى مطهرات. ثم شرحت لي بإسهاب عن محلول الرصاص الجديد القاتل للجراثيم. ثم انعطفت تحكي عن المخدر الذي يعطى للمصابين بفقر الدم والهواء، ووصفت هذا المخدر بأنه لذيذ وناعم ومهيج للأحلام الوردية، وأن الجسد يتناغم بفعل المخدر ويقبل مع الوقت المحلول الجديد. وسألتها إن كانت الحشود المزدحمة على أبواب المتاجر والأرصفة ومداخل الثكنات قد تناولت المحلول، فقالت بأنها تتناوله محلولاً في الدم والهواء وبذلك تصير هادئة وداجنة. وسألت عن العلاقة بين الجند وتجار الحرب. فقالت: صه. عليك أن تتحاشى مثل هذه الأسئلة التي تسبب الغم. وسألتها عن أنواع الغم الذي تتحدث عنه فهمست: المسلخ!

وتحركتُ فشعرت كأن ذراعي مشلولة. وكان الدوار والعرق وسيلان المصل في العروق يمحو حدود الأشياء، وكنت أشعر وكأنني أغوص في أحواض هلامية حارة، وكانت هناك الجراثيم والرمل وروائح الجراح وأصوات الباعة وأشعة الصحراء ودوي القنابل والمصل الأحمر وصوت حبيبتي الضائع خلف البحار. صوت حبيبتي الضارع: هي ذي أزمنة الضيق قد أقبلت!

قاعة الخنازير

بناء قديم مرتفع مطلي بالغبار. مسفوع بدخان رمادي. بناء مغلق إلا من كوى صغيرة. للبناء باب حديدي أسود يحرسه جندي مسلح يعتمر خوذة فولاذية. على سطح البناء جند مدرعون بالأسلحة. جندي الباب لا يسمح بالدخول إلا بعد أن يخلو بالممرضة.

ندخل. قاعة مستطيلة لون جدرانها في لون الرصاص. حشد من البشر على طول القاعة. أرتال صامتة في رواق صامت. بشر نحيلون عراة ينتصبون كالدمى في مواجهة آلات غريبة معقدة. آلات بيضاء ولامعة. لامعة وبيضاء وحادة في مثل وهج الشمس. خلف الآلات رجال بيض سمان في وضع متأهب. القاعة مفعمة بروائح مختلطة من الحوامض والمحاليل والمخدرات وعرق الأجساد والدم والبنسلين والقطن المطهر.

العراة يتقدمون واحداً واحداً باتجاه آلات الفصد. لا أحد يتكلم. حتى التنفس يخرج مختلجاً. إيقاع طقسي مهيب ينتظم بأوامر تصدع لها القدم والذراع والرأس وقلب الإنسان. تحت هذا الإيقاع يتسق الصمت والذعر والاستسلام والحزن وأشياء أخرى لا تسمى. كلها ارتسمت على الوجوه ووراء العيون وتحت الجلد.

إنهم يبدون هناك كآلهة من رخام باهت داخل هذا العراء الصحراوي.

- ما الذي يحدث؟ سألت الممرضة.

- فصد الدم.

- وماذا يفعلون به؟

- يعبأ ليباع أو يصدر إلى الخارج.

- ومن هؤلاء العراة الضعاف؟

- جياع الأرض.

- ولماذا جاؤوا إلى هنا؟

- جياع ووحيدون.

قلت: ولماذا لا يصرخون؟

قالت الممرضة: تناولوا المحلول فتحولوا إلى مخلوقات داجنة.

- ولكن حتى الحيوان يصرخ وهو يُذبح؟

قالت: كثرة الأسئلة تورث الغم.

قلت: آه. إنني أختنق وأغثى. لنخرج إلى الحدائق!

الحدائق

مازلت أرزح تحت مطر حار. أرى أقواس قزح مرصعة بالدم والعشب والجراثيم والشمس. في فمي البحر والصحراء وفي عيني طيف حبيبتي الضائعة، ومايزال جسدي مطوِّحاً تحت مجرات من المصل والوهج والتعرق والبياض والغبار. إنني أرتعد مأخوذاً بالخوف من تناول المحلول المهدئ.

سماء ملفوحة بشمس. نرى أرضاً محترقة العشب والحجر والتراب. وعر. وعر. والمدى ملألأ بعذوبة موت أبيض ورمادي.

تخبرني الممرضة أننا نتجه نحو حدائق الحرب والطفولة والقتل والورد الذابل. أحس بالممرضة تسندني إلى صدرها الأبيض فتعبرني رعشة حنو. ألثم صدر أمي الدافئ فيلفحني الوهج الخارج من نبض الأرض المحروقة. أسألها إن كنت مريضاً فتفتح زجاجة الأوكسجين وأستنشق. أخاف: هل هذا هو المحلول؟ تقول: لا. أسألها إن كانت ترى مثلي العراء البهيج المهيج للأعصاب. فتقول: نعم. ثم أسأل إن كنت مخدوعاً وهل حواسي سليمة. فتقول: ليس بالحواس وحدها يفهم الإنسان.

- ولكن لماذا أنا هنا؟

- لتصحو.

- لأصحو أم لأُجن؟

لا تجيب. إنها تحدق في الضياء المتوهج والسماء المسفوعة وتستمع إلى دقات قلبي.

نرى عن قرب آثار حديقة قديمة يلعب فيها الأطفال. فجأة دوّى انفجار فكانت هناك جثتا طفلين تغطتا بدثار من العشب الرمادي والزهر المحروق.

أزيح موجة الكابوس الرصاصية وأقترب لأرفع الغطاء. تنهرني الممرضة. أمدّ أصابعي فتغوص في أحشاء ممزقة. أخرج أصابعي وأنظر إلى آثار الأحشاء فوق الأنامل. قربنا انتصب حشد وجنود ونساء يولولن. نرى الجنود يلهون بقطع من أعضاء الطفلين المقتولين ويتلمسون الآثار المتناثرة على الحجارة والأعشاب الجافة. نسأل عن الحدث الغريب فيقال لنا إن الأطفال كانوا يتقاذفون القنابل ويلهون بها ظناً منهم أنها أقمار. كانوا يضحكون ويغنون عندما انفجرت اللعبة فاخترقت الأحشاء والرأس والعيون والأرض وقلوب الأمهات النادبات.

وقالت الممرضة بأن ألعاباً قديمة مماثلة حدثت هنا، وأن الأطفال خدعهم ضوء القمر فاكتشفوا الموت متأخرين تحت أشعته.

وقلت: هل تناولوا المحلول هم أيضاً؟

وحايدت: ألم تر الجنود؟

- ولماذا لم يرَ الأطفالُ الجنود؟

- الأطفال لا يرون غير القمر.

- ولكن من الذي حول الأقمار إلى قنابل؟

- تجار الدم.

بدت أزهار الحدائق البيضاء حجارة مهشمة. وبعد أن فتَّشنا الجنودُ دخلنا حديقة الأنقاض. رأينا داخلها عظاماً وجماجم وثياباً محترقة وخوذات ثقبها الرصاص. يبدو أن الحرب مرت من هنا!

نتوغل داخل الوعر المحروق فنرى فيما نرى شواهد عليها كتابات غريبة. لم تكن أسماء. بدت أرقاماً على شكل ورد ملفوح بالبارود والغبار والزمن. أسأل عن الشواهد فتقول الممرضة بأنها

علامات الأطفال الذين خُدعوا بالقمر. دفِنوا هنا وحيدين في هذا العراء الموحش كما يدفن بذار الأرض.

يباغتني الدوار فأدخل مدار الطيوف. حرب أخرى راحت تقصف رأسي ودمي. شيء لا يسمى صعد من أعماق الأرض واشترك في القصف. لقد هبت روائحهم الممتزجة بالريح والضياء ولون الوعر.

تنهار قواي فوق القبور. أتلمس الأرض وأنا أحبو غارساً صدري ووجهي وأصابعي في باطن التراب ممرغاً جسدي بحرارة الأرض الدامية ثم أنتحب.

توقظني الممرضة من غيبوبتي ويأتيني صوتها الممطر: لا تحزن. سينمو دمهم مع الزمن عشباً ومدناً وأقماراً، وسيغني العشب والشجر النامي كلما هبت الرياح وسيسمع الناس الغناء، وهذه المرة لن يكون الغناء حزيناً.

البحر

بياض. بياض. قوس قزح يبدأ من أفق البحر ويغيب وراء الغابات. لقد توقف المطر الحار وابتدأت برودة البحر. مع انهمار هذه البرودة الخضراء يصعد الحنين والشوق داخل نسغ الجسد. لم تعد البقع الحمراء تتقاطر من الأنبوب. لقد تناول الجسد المصل وهدأ.

عيناي تريان أفضل على ما يبدو، والألوان الطيفية اتّحدت في اللون الأخضر. ضوء كالسهم يخرج من مراكز خضراء يخترق الحريق والجنود والغبار وأثرياء الحرب والأطفال القتلى والمحاليل والصمت والشمس. إنه يتجه نحو البحر. يضيء البحر. فوق خط الضوء أسير باتجاه حبيبتي التي تنتظر على أبواب البحر.

وأنا أتقدم في هذا الغسق البنفسجي والأخضر، أسمع أصوات البجع الأبيض لكنني لا أراه. أصوات توحي بالنزع، أو الرحيل. أسأل الممرضة التي أشعر أنها معي كالطيف الأخضر، عن حبيبتي. تشير نحو نقطة بيضاء في مدى الماء السحيق. أرى البحر شاسعاً، عميقاً، أخضر، يصل السماء بالأرض وقد طوقه الجنود المسلحون، ولا أرى حبيبتي. بغتة ألمح طائراً أبيض ينقض ضامّاً جناحيه، يطعن الصخور الخضراء. أرى جسد البجع يتشظى. أرغب أن أصرخ لا. لا. مايزال هناك وقت على موت الطيور البيض.

أسأل الممرضة عن حبيبتي فتقول: تأخرت عنها. مضت مع طيور البحر.

أقول: آه. حتى هي تتركني وحيداً وتمضي!

تقول: يبدو أنك وصلت في غسق متأخر.

الفجر

ها أنذا أخرج من المشفى نشيطاً كطفل. يلفحني صباح وردي بدأ يتفتح في عراء المدينة. أرى الأطفال يقفون على نواصي الشوارع وهم يحملون بنادق من قصب، وفي الساحات ينتصب الجنود الفقراء المقتولون بثيابهم الدموية. ومن أقصى المدينة أسمع دوي أصوات الذين سُحبت دماؤهم في السوق والمسلخ. كان المقهورون والمذلون والصامتون والشهداء والمسروقون والسجناء ينشدون أغنية عن الطيور والزنابق والأمطار والرعود والغابات والبحار الخضر. كانت أغنية عن الغضب الجميل الضاحك. فجأة ينطلق من رأسي طائر مجنون يبدأ الغناء مع كورس الحزن والأموات والعشب المحترق والبحر والشمس والقتل العذب.

أشعر بجسمي خفيفاً كرذاذ الثلج، وبقلبي يتفتح بنار في لون

عباد الشمس. أندفع وأنا أغني وأرقص وأضحك. أعدو، أعدو في الشوارع ومعي الموت والفجر والطيور والحقد والزنابق والأطفال والبحر وفقراء الحرب والقتلى وطيف حبيبتي.

في نوبة الغناء والرقص الاحتفالي والركض صاح الفجر الغاضب فينا: احرقوا المدينة.

من قلوبنا وعيوننا ودمائنا وحقدنا خرجت قنابل ومتفجرات وراحت تقذف السيارات والمؤسسات والمتاجر والسجون والثكنات والمخافر والمعتقلات والقصور والجوامع، وكل ما بني على أرض المدينة من نصب تذكارية لآلهة الموت.

بعد أن حوّلنا المدينة إلى مهرجان من حرائق وغبار ورماد وأصوات، فتحت الصحراء جناحيها واحتفت بنا.

دمشق 1976

الـمــيراث

1

مشهد الخروج الأول

عندما قرر أبو ذر الغفاري نبذ الدين ودعوة الناس إلى الثورة صُعق والي دمشق الأموي. استدعاه وسأله:

ـ أترتدّ يا أبا ذر؟

فاجأ أبو ذر الوالي: ما عاد في الإسلام متسع لكلينا.

قال الوالي دهشاً: ولكن كيف يعود الصحابي وثنياً؟

رد أبو ذر: هلا سألت نفسك يا ابن أبي سفيان كيف الوثني الطليق يرث الولاية ويأخذ المُلك عنوة؟!

قال معاوية وهو يمسد لحيته بهدوء: افتقدَ المُلك أهله بعد هجر وأخيراً عاد إلينا طائعاً مختاراً. ما نحن يا أبا ذر إلا ملوك وسَادة هذه الأمة منذ عبد مناف وسنبقى.

هز الغفاري رأسه. مغتاظاً نظر إلى الأفق الصحراوي الشاسع. قال الغضب الأحمر في عينيه: يا ابن أبي سفيان ليست المأساة هنا. إنها في الدعوة التي صاح صاحبها فيكم: اذهبوا فأنتم الطلقاء!

غضِباً نهض الرجل من مجلس الوالي الأموي دون أن يحيّي: حتى السلام ما عدنا نستحقه منك أيها الفتى المغرور؟

بعينين كعيني صقر حدق أبو ذر في وجه معاوية. أمسك مقبض سيفه وضغط عليه: ما جئت لألقي سلاماً بل لألقي هذا السيف بيني وبينك!

2

مشهد سقوط رأس الجعد بن درهم

خطب خالد بن عبد الله القسري والي هشام بن عبد الملك على العراق صبيحة عيد الأضحى: أيها الناس انصرفوا وضحّوا، تقبل الله منكم، أما أنا فسأضحي بهذا الزنديق: الجعد بن درهم.

ولما سأل أحد الأعراب عن الذنب الذي ارتكبه الجعد، قال الوالي: إن الجعد كان يقول: ما كلم الله موسى، ولا اتخذ ابراهيم خليلاً. ثم وسم الأمويين بأنهم فسَقة وأنه والأعراب بريء من آلهتهم ودينهم لأنهم سرقوا مال الفقراء، وحكّموا السيف والجند بدلاً من السنة والشورى.

نهض أعرابي من ساحة المسجد وقال: هلاّ سألته أيها الأمير إن كان يؤمن بالله حتى لا تحمل وزر مسلم يوم القيامة؟

قال الوالي: اسأله. أيها الجند، أظهروه للقوم.

تقدم الجعد مطوقاً بعسكر الوالي موثوقاً بالسلاسل من قدميه ويديه.

سأل الأعرابي الجعد: يا ابن درهم. أتؤمن بالله؟

رد الجعد: عن أي إله تسأل؟

بوغت الأعرابي من السؤال المشرك. قال مستغرباً: وهل هناك إلَهان يا ابن درهم؟

ابتسم الجعد: بلى. إله معاوية وإله أبي ذر.

وسأل الأعرابي بفضول: ولكن بماذا يختلفان؟

رفع الجعد رأسه ونادى عالياً بصوتٍ داوٍ لتسمع الحشود التي ستشهد مصرعه بعد كلمته الأخيرة: الإله الأموي سمين متخم ضاحك، من شدقيه ينزّ اللحم والدم والحقد، أما إله الغفاري فهزيل جائع حزين، قلبه يقطر مرارة وشمساً وتعباً.

انتفض الوالي مغضباً: أيها الزنديق المشرك، من علمك هذا؟

قال الجعد المغلول: أغلالي وجوعي وجورك وقوة جندك!

قال الرواة: وصفق الوالي والغيظ يحرقه مومئاً إلى جنده وسيافه أن ينفذوا الحكم بالجعد.

صعدوا به مقيداً إلى مئذنة الجامع بينما الأعراب ترى وتشهد صامتة كالشجر. وقبل أن يُذبح ويُقطع رأسه ثم يقذف به إلى أرض الساحة، سألوه إن كان يريد التراجع عن أفكاره، فاكتفى بالتحديق في وجه الوالي، وعندما التقت عيناهما غض الوالي بصره نحو الأرض فإذا الرأس بين قدميه والعينان ماتزالان تومضان كنجمتين في سماء مظلمة.

3

مشهد صلب غيلان الدمشقي المعاصر

سأل التلميذ معلمه: من المخطئ ومن المصيب، الغزالي أم ابن رشد؟

قال المعلم: لا هذا ولا ذاك.

قال غيلان: ولكن أيُّهما أقرب إلى المعتزلة؟

قال واصل: ابن رشد أقرب. أبو حامد يحتقر العقل والحرية، أما ابن رشد فيرفع من قيمة العقل والإنسان.

فجأة سأل التلميذ: أنت علمتنا أن الخطين المتوازيين لا يلتقيان فكيف يتلاقى الله والعقل؟

صُدم المعلم: أنت ماذا تقول؟

ارتبك التلميذ قليلاً. أخيراً قال: إما العقل وإما الله!

فوجئ واصل بن عطاء بكلمة غيلان. استغفر الله. قال باكتئاب: المعتزلة لا تقول هذا. غيلان لماذا تنحو نحو الملحدين؟

غضب غيلان: لا أريد أن أشترك مع أمويي دمشق في عبادة رب واحد. قاتلهم الله، لقد سرقوا الإسلام واشتروا الأمة بالدرهم والسيف والدسيسة.

قال واصل برصانة اعتزالية: ولكن مقاومة الظَّلَمَة والطغاة لا تكون بالخروج من الدين. الله للناس جميعاً، هو للفقراء كما للأغنياء. الأمويون فسَقة لكنهم ليسوا كفرة.

قال غيلان بحزن غاضب: ما عاد الدين للفقراء. والله ما عاد يطعم جائعاً ولا يكسو عارياً ولا ينصف مهاناً. صار الأموي الغني إله دمشق الذي يحيي ويميت.

ارتعد المعلم من لهجة تلميذه الغاضب: غيلان أرى في عينيك حقداً وخروجاً وناراً. أمية لا تؤخذ بالسيف والمعتزلة تقول بالمنزلة بين المنزلتين. إنما نحن فرقة كلام لا فرقة حرب.

قال غيلان الخارج: سئمت معادلة التوفيق والتلفيق. إلى الجحيم رب بني أمية ورب المعتزلة. قلبي يشتعل بالنار وصوت الغفاري يحدوني: عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه!

قال المعلم: واأسفاه!

بغتة انحطم الباب ودخل جند الخليفة. اقتادوا المعلم وتلميذه بعد إيثاقهما. وعلى أبواب دمشق علقت جثتان مصلوبتان، كتب تحت جثة المعلم: هذا جزاء المعلم الفاسق الذي أفسد تلميذه بالتحريض على الثورة. وتحت جثة غيلانِ الدمشقي كتب: هذا جزاء الملحد الذي ألّب الناس على بني أمية حياً وميتاً.

4

مشهد النار القرمطية

قال الرواة: وكان أن جاءت ليلة غريبة لا تنسى. كان الشهر رمضان والناس صيام في كل ديار المسلمين، فرأوا في ليلة ليلاء ناراً حمراء، شديدة اللهب، شديدة الانتشار، تخرج من السماء والأرض، وتحيط بدمشق وبغداد والحواضر والبوادي من بلاد العرب، فاعتقدوا أنها ليلة القدر، وهذه نار الله الموقدة يريها الله نوراً لعباده الصالحين، فتمنوا على الله الجاه والثروة والمُلك والسعادة.

ولما أصبح الصباح كانت تلك النار تكتسح الصحارى والسهول والأودية وتخترق أسوار المدن. قال الرواة: وما أن أدرك الناس الذين شاهدوا تلك النار، أنها ليست بليلة القدر الإلهية حتى أصابهم هلع وخوف شديدان، ففرّ الذين في نفوسهم خوَر وضعف، والذين يكنزون الذهب والفضة وحملوا ما خف منه وغلا، أما من شهد وسمع بنفي أبي ذر الغفاري وصلب غيلان الدمشقي ومقتل الجعد بن درهم، فإنهم تواروا عن الأبصار في المغاور والكهوف. أما الفقراء من العامة، واليتامى والعبيد، والصنائعية، والشحاذون، والسجناء، فلم يروا مغادرة أماكنهم لزوال أسباب الهروب.

بيروت *1975*

حالة حصار

1

لم يكن يعرف إن كان مستيقظاً أم لا. زمن طويل مرّ عليه وهو داخل هذه الحالة الغريبة. ويرى أنه يسير فوق أرض خضراء، يدندن مطلع أغنية قديمة. كان الوقت ليلاً. في السماء قمر ينير الأرض، وتحت قدميه عشب مضاء.

وقال: لابد أنني في بلاد غريبة!

منذ زمن فقد هذا الرجل ذاكرته النهارية، بعد أن اختار النوم بين المزابل وداخل المراحيض وعلى الأرصفة قرب مجاري المدينة.

2

عندما هبط الرجل المدينة حلم بامرأة جميلة كالعشب وبغرفة فيها سرير مريح. كان قد مضى عليه وقت طويل لم ينم فيه. كم بدا مجهداً وهو يعبر الطريق المفضية إلى المدينة التي اختار الإقامة فيها. كانت حروب البرابرة والمسلمين قد أنهكته، فاكتشف بعد صراع طويل ضد الغزاة والأعداء، أن جميع الحروب لا تجدي نفعاً، فمعظم الذين خاضوها انتهوا بعد النصر أو الهزيمة إلى الأرصفة أو السجون أو ساحات الإعدام.

من أجل هذا اختار عقبة بن نافع أن يقضي ما تبقى من أيامه داخل هذه المدينة غريباً منسياً.

على أبواب المدينة أعطى لأحد الرعاة ثيابه الحربية، وسيفه، وحصانه، وكيس نقود صغيراً هو كل ثروته من غنائم الحرب، استبدلها بأسمال الراعي الرثة ومضى.

3

كان هناك في مساء مضاء. ورأى السماء والأرض طيفاً من اخضرار. ورأى أنه يسير بين الأخضر والضوء. وسمع صوتاً سرياً عميقاً يقول له: اتبعني. وما كان يدري إلى أين يسير. كان متشحاً بالنسيج الضوئي وطراوة العشب. شيء يشبهه في زمن غابر، خفيف ومفعم يعبر الفضاء. وقال الصوت الخفي العميق: اقترب إنني هنا.

ورآها هناك بين العشب على حافة جدول. كانت ترتدي وشاحاً من عشب. بغتة هبت ريح. وسمع حفيف الثوب. وراحت الريح تعريها بإيقاع موسيقي عذب. وبدت بين الضوء والأخضر ضوءاً آخر أكثر بهاء.

تمددا على العشب، ودخلا معاً البهاء الطلق.

فجأة رآه يخرج من أرض أخرى. من أرصفة وسخة وبوابات مدن مسدودة بالنفايات. من مراحيض عامة خرج جرذ في حجم المدينة غطى الأخضر والضوء ونسيج البهاء. فصلهما وراح يقضم بأظافره وأنيابه جسد المرأة الأخضر العاري.

4

زماناً طويلاً. زماناً طويلاً. جاءت من مكان بعيد. حملتها الريح

إلى النفس الهاجعة فاستقرت هناك كضربة سكين. ولكن من أين جاءته في هذا الوقت الصعب المنسي؟

كان يعبر الأرصفة مطوقاً بالمدينة المغطاة بالصمت والغبار.

وفي الهواء انتشرت رائحة المحاليل والحموضة، وحول مصابيح الشوارع خيّم ضباب. وحده الشجر بدا أخضرَ لامعاً تحت هذا الغسق.

تحت عري المدينة الوحشي كان فقدان الأمان يسكن المنعطفات والردهات المظلمة. وباغته ذعر بدائي. سمع إيقاع خطوات قادمة تقرع الأرصفة. بغتة تمزق الصمت بأصوات وحشية، ورأى قططاً وكلاباً تهرع. أحس أن دماً يسيل الآن في مكان ما من جسد يُطعن. وانتشرت رائحة الدم في الريح والخطوات والأصوات. كانت المدينة تُفصد والدم ينشر الطمأنينة والهدوء تحت الجلد الفاسد.

5

لم يسأله الراعي لماذا ارتضى المقايضة. كل منهما قَبل الأمر بصمت. لكن الراعي تساءل فيما بعد: ترى ما الذي سيفعلَه بلباس محارب وسيف قديم وحصان في هذا الزمن الهادئ؟

يذكر عقبة الآن وهو يرى البحر، كيف أن أقدام حصانه كانت تضرب الماء بقوة كأنما تضرب صدر الصحراء.

وتذكر أن هذا البحر أوقف جيوشه عن استمرار الفتح والوصول حتى نهاية العالم. عندما صهل الحصان وجمح تذكر قول أمه: تصير أميراً ثم شحاذاً ثم تموت منفياً. هذه حال الدنيا!

ابتسم عقبة لقول أمه الأخرق. نظر إلى سيفه البراق: مادام هذا السيف براقاً في يدي لن تغيب الشمس عنك.

هزت البدوية رأسها. تقدمت من فارسها وضمته إلى صدرها بقوة. مسحت بكفها جبينه الوضاء ثم قرأت عليه آية من سورة الرحمن.

كان ذلك يوماً وهذا يوم آخر.

6

في الزمن الصعب، يتساقط شيء ما من سماء لا مرئية. شيء مزيج من النار والحيض والبخور والدم الأسود والتراتيل والشهوة والاستشهاد. إنه يهبط في الأمسيات هبوط الطلّ فوق العشب، في اللحظة التي يتوحد فيها القلب البشري مع الحجر والروائح وأصداء الذاكرة. يأتي حاراً أو بارداً لكنه لاسع كغضب الريح الرملية: زماناً طويلاً. تأتيه داخل هذا الغمام وهو ممدد أمام بوابات المراحيض أو قرب صناديق القمامة أو على منافذ مثانة المدينة التي تصب في البحر.

ومع أنه بدأ يألف الأماسي وهذا التوسد اللامبالي، كما ألف الصمت ورائحة المحاليل والفزع والأصوات، إلا أنه لم يكن يدرك من أين ولماذا تأتيه هذه الأغنية القديمة في هذا الوقت الراكد.

منذ وقت غابت التلال والشمس وروائح البراري. وها طور جديد متحول قد أقبل.

في المدينة والبشر حدث التحول. اخترق الطبقات الداخلية للأنسجة والخلايا.

كيف جاءت؟ شقت جدار هذا الليل الصلب ومعها الروائح السحيقة التي نسيها، بعد أن خيل إليه أنها دفنت مع الطعنة التي تلقاها في الظهر غروب ذلك اليوم وهو يضرب بسيفه البراق.

يومها قال البربري: خذها مسمومة من يد كسيلة.

ومع سقوط عقبة سقطت الشمس في البحر.

وكان ذلك يوماً وجاء يوم آخر.

7

في نهار ساطع ينهض عقبة بن نافع شاقّاً قبره. يمتطي حصانه ويلبس درعه الفولاذية ثم يمتشق سيفه: «أفتح باسمك مدن الشرق والغرب. أجعل من حصاني وسيفي وقتاً ومدينة. تزدهر الشمس في أطرافك، ومن جسدك يطلع الضوء والعشب. دويّ مجدك لا يتوقف إلا حين تتوقف الريح».

ويرى جسده عابراً البحر. بحر أزرق في ليل أزرق تحت سماء زرقاء. ويرى شجراً يرفرف وينحني فوق الماء. الشجر يميل فوق حواف الماء صانعاً ممراً من الظل والضوء.

يرى الجسد يطير فوق سطح الماء سابحاً في جلال الضوء والظل. شمس دافئة تتغلغل في نسيج المياه اللامعة. يحس أنه مأخوذ. لا نائم ولا مستيقظ. على حافة الظلمة والنور في منطقة اللون والرائحة والرطوبة والدفء.

ويراها. هناك في غسق الماء وشفافيته. عارية. مضيئة. تناديه بالصوت القديم العامر بالشهوة والوجد. هي التي عشقها بكل حرارة وتوق الدم القديم: اقترب. أنا هنا.

ويرى جسده يغوص في الماء. تتحول يداه سيفاً وحصاناً وحباً. ويبدو خفيفاً كطائر بحري اعتاد عبور الماء. فوقه يرى شجر الدردار الأخضر يتماوج. شعت المياه بجسدها. اقترب منها واخترقا معاً البحر الماسي الأخضر. لامسا الرمل. سار بهما الرمل. عانقها بشوق المحارب القديم. كم كان جسدها مصقولاً ودافئاً. وفخذاها حنونين كذراعي أم. والتحما في عمق الماء. في لحظة

مباغتة اضطرب البحر. صعدت من باطنه الروائح والمحاليل وكل ما تقذفه المدينة من بقايا. تلوث الضوء والظل والغبطة واعتكر البحر، فانفصلا. ارتفع الصوت فوق الهدير والتلوث: زماناً طويلاً.

8

كان ينام في غرفة وفي غرفة أخرى كانت تنام. بين الغرفتين جدار من زجاج. على جدار غرفتها علقت صور أطفالها الذين ماتوا في الحرب أو في السجن أو في المنفى.

كانت ممددة على السرير وكان عاجزاً عن اجتياز الجدار الزجاجي الذي يفصلهما.

ورآها تتحرك. كانت تقوم بحركات جنسية. بدت عارية ورأى رجلاً عارياً تضغطه بين فخذيها. رجل غريب احتل سرير الأب. ها هي ذي تصدر أصواتاً وآهات لا تُسمع بينما الرجل الغريب يوغل فيها. فجأة هبت ريح فانفتحت النوافذ وسقطت صور الأطفال فتهشمت. اختفى الرجل الغريب في ظلام هلامي وخمدت حركات الأم.

في الصباح تذكر عقبة أن الأحلام المزعجة تعكر هدوء النوم الناعم.

9

كل من رآه عابراً أو مستلقياً كالخرقة قال عنه شيئاً منفّراً أو تحاشاه. أن أحد لا يبالي بالخرق البالية أو علب القمامة في مدينة ضخمة.

وعبر ليالٍ طويلة كانت المدينة قد اعتادت مجانينها

ومتسوليها، كما اعتادت مشوهي الحرب والمنبوذين وبقايا المخمورين وصعاليك أواخر الليل.

داخل نسيج هذا الاعتياد اليومي كان يُمضي فترة نقاهة ما بعد الحرب. الفترة التي تبدو كأنها الغفوة الباردة لحيوان قطبي يدخل طور التجمد والسبات.

في مثل هذا الوقت الطارئ، يتحول الزمن بن رقاصي الليل والنهار إلى ما يشبه حركة الطعن العضوي بين رجل وامرأة في مبغى.

إن رائحةً ما تنبعث من كل مكان. رائحةً تذكر بحمض الكبريت أو عطن المقابر المهجورة.

يحس الرجل وهو يجاهد لاستعادة الزمن الآخر، زمن البحر والصحراء، إن هذه الرائحة قد أحدثت تبدلاً مخيفاً في طبقات الوعي البشري.

تُرى هل أقبلت أزمنة العصاب والتفسخ! هي ذي الشمس تنحدر، وعما قريب تهبط الظلمة الساحرة حاملة معها الغيبوبة والنوم.

في مثل هذه الأوقات المتحولة، يصعب التعرف على الأشياء. يحس الرجل بأنه غريب، منقسم على نفسه. شيء أقسى من فقدان الذاكرة حدث. التباس بين الغفلة والصحو، بين البحر والصحراء، بين الأم والعشيقة، بين الأمير والمنبوذ.

أقبل الوقت ـ الحلم فرأى أنه يقف فوق جرف سحيق. منحدر مزروع بالصخور الغضارية. وقال لنفسه: لو سقطتُ ما الذي سيحدث لي؟ ولاح له درج أصفر في منتصف المنحدر. عندما هوى وقف فوق الدرج. بدا مهدداً بالسقوط نحو الهاوية. أجرى التجربة أكثر من مرة فكان يقف في المكان عينه. في المرة الأخيرة هوى نحو القاع داخل حفرة مليئة بمحلول رمادي كثيف. غاص نصفه في المحلول وسمع أصواتاً غريبة تتحدث عن تجربة كيميائية لتحويل

مراكز الدماغ وتعطيلها. وشعر بحراب وإبر لا مرئية تخترق رأسه من الخلف. كانت تنطلق كالشهب دون أن تحدث ألماً. وكان لها خاصية تفكيك الترابط العضوي لمراكز الدماغ وفصلها ثم تذويبها في المحلول. استمر ذلك وقتاً قصيراً. حاول أن ينهض أو يصرخ فبدت الحركة شبيهة بحركة أرنب أو فأر ممدد في مختبر بعد أن تناول محلول الكلوروفورم. كانت الحركة تسحبه ليغوص أكثر داخل دائرة المحلول.

وأحس بجسده مليئاً بالثقوب والمحلول يتخلله.

حين استيقظ كان يرتعد من البرد والفزع، وحوله تدفقت سوائل المراحيض التي فاضت ليلاً فبللته.

المحجر

1

صباح هذا اليوم صدرت الأوامر لتجميع المتسولين والمشردين، والمنبوذين وفقراء المدينة والمجاهدين القدامى، وكل الذين تؤويهم الأرصفة والتكايا، في مأوى العجزة القائم ظاهر المدينة.

وفي ظهيرة اليوم نفسه نُظِّفت الشوارع من النفايات والبقايا ورُشت بالماء، وارتفعت اللافتات وأقواس النصر.

المدينة تستعد للاحتفال بذكرى الانتصار على الأعداء.

في المأوى الجديد حُجر عقبة مع الآخرين. ومع أنه شعر ببعض الأنس بينهم إلا أنه ظلَّ كئيباً.

كانِ المحجر قاعة شبه مربعة تتسع للكثيرين الذين تمددوا فوق الحُصر والبسط المهلهلة.

تفرس عقبة فيهم. كان يعرفهم واحداً واحداً. وجوههم أليفة رغم الحزن والكآبة، وعيونهم وديعة رغم النيران التي أخمد وميضها الزمن. كان يعرف من أين جاؤوا كما يعرف حيثيات تاريخهم المفعم بالحزن والحقد والعظمة والذل والكبرياء والسقوط. كما كان يعرف أيضاً لماذا أُبعدت هذه الشراذم الطافية على سطح قاعة عتيقة في الوقت الذي تشتعل فيه المدينة بأعياد النصر.

2

عندما أطلقت المدفعية طلقات الاحتفال وثب رجل في القاعة وراح يرقص رقصة غريبة محمومة. خلال الرقصة أخرج من أزاره زجاجة خمر وشرب منها. مرّ على العجزة يسقيهم: فلنحتفل نحن أيضاً. اشربوا نخب النصر.

وإذ أوشك على الثمل انطلق يغني:

«عندما أخذوا بيتي وماشيتي لجأتُ إلى الجبلُ،

فيما مضى كانت الغابة بيتي والبندقية زوجتي.

الآن بندقيتي زجاجة من الجعة وبيتي مأوى العجزة.

آه! ما أقسى سقوط الإنسان من الجبل إلى الحانة».

حين أنهى الرجل أغنيته سقط على الأرض واندفع في نشيج عميق.

3

كان مفتوح العينين حين بدأ الخدر يدخل القاعة جاثماً بثقله فوق المدينة التي تحتفل بأعراسها.

بدا صاحياً الآن، يصارع ظلاماً يتقدم مكتسحاً كل الجهات. وسأل نفسه في أية نقطة يقف في هذه اللحظة، وهل باستطاعته أن يفعل شيئاً في هذا الوقت؟ ورأى نفسه كأنما يخطو في الهواء. وسأله صوت رجل حزين: إلى أين تفرّ يا عقبة؟ وقال عقبة: أنا منبوذ وعاجز. وقال الصوت: ولكنك تراهم وتعرفهم. وقال: لكنهم لا يستطيعون النهوض الآن. وقال الصوت: ولكن أنت ماذا فعلت؟

ورآهم قربه. كانوا ممددين هامدين على أرض القاعة. بدوا متقاربين جداً. بين الواحد والآخر مسافة. بدوا خامدين وعيونهم مغلقة. على وجوههم ترين كآبة أسية مستخذية، بدت في الغسق متواشجة مع هذا الليل الشتائي القاسي. كان نومهم الكسول عميقاً، عميقاً، يسيل على جدران القاعة، ناضحاً بحزن خفي. وفي الخارج كانت الريح ودوي الاحتفال يتكسران على جدران القاعة الخارجية.

كم بدا المساء طويلاً في تلك اللحظة، كذلك سكينتهم. وهجس: الزمن. آه. وأحس بأنه متوحد داخل هذا الغسق الواني.

ما كان بإمكانه الآن أن يصدر أية حركة ذات معنى. الشيء الوحيد الذي كان يستطيعه: اليقظة. وأن يظل مفتوح العينين حتى الفجر.

من نافذة القاعة رأى نجمة تضيء في سماء بعيدة.

كانت مطوقة بالظلام لكنها كانت تضيء حول نفسها.

4

استمرت المدينة تحتفل، واستمر العجزة في المحجر يحتفلون بطقوسهم الغريبة الخاصة.

أحد العجزة نهض وقدم استعراضاً عارياً. ألقى كلمات مؤثرة ذات معنى ولا معنى لها. قال: ليتعلم الناس الموت احتجاجاً على العجز. اقتلوا الخوف في نفوسكم وبذلك تضيئون، انظروا.

بعد أن أنهى طقوس تعريته، انتضى سكيناً وراح يطعن بها صدره حتى الموت، ثم مات.

ووقف رجل طويل في جبهته غضب وصاح: فلنقدم احتجاجاً جماعياً ضد هذا الحصار. ثم شرح فكرة تخريب احتفال المدينة واحتلال الأرصفة والشوارع من جديد.

بعض الرجال استنكر المشروع. آخرون سخروا، والبعض عاد إلى النوم من جديد، بينما رجل الخمر غنى أغنيته المؤسية.

ثم تقدم الصمت الحزين وبكى.

من وراء زجاج النافذة رأى عقبة صقراً وحيداً قادماً من مناطق الغابات. جمع الصقر جناحيه ثم انقض كقذيفة. حطم زجاج النافذة وهوى قتيلاً بين العجزة.

5

باسمك أحيا ثم باسمك أتشرد وأُنفى وأتسول. ثم باسمك أموت. ولكن أأنت حقيقة أم محض سراب؟ حية أم ميتة؟ هؤلاء وأنا موتى أم أحياء؟ أين عرّاف الوقت المدرك لحظة الغفلة من لحظات الغياب؟

من أين أتى زمن الصدمة المباغتة، هذا الطاعن بوحشية نسيج العقل؟

قل يا عراف الأزمنة: في أي الأوقات نحن؟

وكان أن جاء ليل آخر، وعقبة مازال ملقى في المأوى يرقب النجمة البعيدة التي تضيء حول نفسها. نجمة المساء السحيق، التي ترى عندما يفقد العالم ضوءه ساقطاً تحت وشاح أسود في مساء طويل.

وتساءل عقبة: ولكن كم عدد الذين يقاومون الصدمة الآن؟

في ذلك المساء تتالت الاحتفالات في المدينة والقاعة، وفي ذلك المساء أضيف عاطلون جدد قذفت بهم الشاحنات إلى باحة المأوى. وفي احتفال المساء أقيمت مراسيم الاحتجاج والغناء والسخرية والطعن وإلقاء الخطب غير المؤثرة.

وقدم أحدهم استعراضاً درامياً مباغتاً أذهل القاعة.

أخرج من تحت أسماله كتاباً مقدساً وبدأ يمزق أوراقه بهدوء. بعد أن تحول إلى كومة من الورق المشظّى، أشعل النار في الكومة وبدأ يرقص وهو يهلوس: اخرجي أيتها الشياطين. تطهري أيتها النفوس المسكونة. يا نار كوني برداً وسلاماً على هذه الأرض الملعونة.

في حميا الرقص فك الرجل أزرار بنطاله الرث، وراح يبول على الرماد.

ثم تقدم الصمت الحزين وئيداً وبكى.

وقال عقبة بكآبة: آه ما أقل الذين يقاومون الصدمة الآن!

الدماء تضيء والعشب ينمو

1

لم يكن النوم والطعام في المأوى رديئين فقط، إنما هذه الحالات الغريبة للمنبوذين كانت أكثر رداءة. كانت تثير الكثير من الاشمئزاز والحزن أيضاً. كما لم يكن يُعرف متى تنتهي هذه الأوضاع الشبيهة بحالة طوارئ دائمة.

استمر الوضع أكثر من يوم. مع كل يوم كانت تظهر أطوار جديدة ومثيرات شاذة، لتعبر عن ذلك الدمار الروحي العميق لنفوس

سقط يقينها بكل شيء. نفوس بدت كأنها تعبر الآن جحيمها نحو المطهر احتجاجاً على هذا المنفى الروحي الكريه.

في هذا الوقت كانت المدينة تشهد عبر طقوس احتفالاتها أفواجاً من المهرّجين والنواحين والخطباء والقتلة والأوغاد والخونة والحمقى والأغبياء والقاصرين والكذبة. كانوا يدخلون ويخرجون، يرتفعون ويسقطون، يرقصون ثم يثملون ثم يقتلون.

وحده كان كالجزيرة وسط بحر اجتاحه إعصار. وحوله كان الرذاذ المتطاير والدوي الوحشي للبحر. لقد بدا العالم آنذاك في لحظة تداخل الشمس بالظلال، كأنما يرتج بضوضاء تكاد تغشي البصيرة.

مع الفجر سرقه النوم، فرأى نفسه يعبر ودياناً ويرقى مرتفعات صعبة العبور. وكان هناك آخرون يرتقون السفوح الوعرة، لكنه لم يكن يعرف أحداً منهم، كما لم يكن يعرف لماذا هو هنا. بدا كأنما يبحث عن شيء ما. شيء فقده أو نسيه في هذا المكان أو في مكان آخر. وسمع أصواتاً وحركات كانت تأتيه من بعيد، من الغابات والأودية والسحيقة. لم يميز الأصوات جيداً. كانت تجيء كصياح طيور ليلية، في صياحها دفق من ألم وعذاب وعبر غابات الزيتون والعرعار. كان الشجر عارياً، ساكناً، وبدت الجذوع شبه محروقة، وعلى الأرض امتد بساط من ورق الشجر اليابس فوق سطح مستنقع.

بغتة كأنما الأرض انبثقت عنها. لم تفقد شيئاً من بهائها القديم. تراءت هناك ناهضة في الجانب الآخر من المستنقع، فوق أرض معشبة مضاءة بنور غريب في فسحة من الضوء الأخضر.

ظهرت في كامل زينتها التي عرفها بها في الزمن القديم. ثوب من الأطلس الأبيض ينسكب فوق جسدها، وفي صدر الثوب وردة حمراء. الوجه يتوهج ويتفتح في هذا الغسق الأخضر. وكعادتها بدت

راغبة أن تأتي إليه. كانا متواجهين الآن. البصر في البصر، لا يحيد أحدهما عن الآخر. شيء في الداخل متّحد وقوي ومضاء، كان ينزع للخروج والاندفاع. مزيج من الشمس والبرق والمطر والطفولة والبحر والجنس والأمومة والأرض والعشب. شيء يكاد ينهي وقتاً ليبدأ الوقت الآخر.

بينهما كان المستنقع المغطى بالأوراق اليابسة والطحالب. وبدت الأرض غير صالحة للعبور، كذلك كان الفضاء كامداً يموج بروائح اتّحدت مع رائحة المستنقع. الروائح الكريهة راحت تنتشر خارجة من الأرض والفضاء والشجر العاري المحروق.

وأحس بضغط الروائح وكثافتها. وخيل إليه أن هذه الروائح تتقدم على شكل موجات لذرات مسمومة، وأنه موشك على الاختناق. كانت الروائح تتغلغل باتجاه مدارات الروح. ورغب أن يقول شيئاً ما. أن يناديها ويسألها: لماذا نحن هكذا. ما الذي حدث لنا. وكيف انفصلنا؟ أحد منهما لم يكن يشيح عن الآخر لحظة. كانت هناك ساطعة ومرئية تماماً. محاطة بكل مجدها وبهائها، مفصولة عن المستنقع والروائح والشجر العاري، وتحت قدميها الاخضرار الدائم للعشب.

خيل إليه أنها بدأت تتحدث. جاء صوتها ضعيفاً، لكنه كان مسموعاً. كان الحديث عن الوقت والأصوات والعشب والبروق والغضب، والموت. كان صوتاً حنوناً عاشقاً، يسيل نحو مسام القلب. وأحس بالدفء والضياء يجتاحانه. وجاهد ليقول شيئاً له علاقة بحبهما القديم. الشيء النائم في رأسه منذ زمن طويل. لكن الكلمات لم تكن تخرج، وما كان باستطاعته أن يتحرك. طيوف من الهجس تتصاعد وتتصادم بينهما، مفهومة وغير مفهومة، مرئية وغير مرئية.

هناك في البرّ الأقصى، بين شقوق الصخور الرمادية، رأى العشب ينمو. وسمع صوت الرعد يدوي من بعيد، وراحت الزهور

تتفتح تحت فجر أحمر. وورود برية صلبة تقاوم صدمة الرياح وجنون الوقت. وورود وأشجار وأعشاب جديدة نبتت فوق الأرض المحروقة بعد ضرب الأرض بالصاعقة. بعد دمار الأرض وكسر قشرتها الميتة. وبعد أن أصبح بالإمكان أن تنتصب القامة ويغني القلب: زماناً طويلاً، زماناً طويلاً أذلّنا الغاصِبون.

2

على بوابة المدينة رأى الراعي. أعطاه أسماله وأخذ حصانه وسيفه ثم اندفع نحو الصحراء.

كان الصوت يأتي من كل الجهات خارجاً من جميع الأشياء. وكان يتبع الصوت. شمس أخرى جديدة تطلع. يوم آخر لا صلة له بالأيام القديمة إلا في التتابع الزمني. رنين جديد يدوي في الأعماق: في زمن الاغتراب بين الدم والنبض. زمن انفصال الأشعة عن أمها الشمس. زمن الجراثيم والنفي والإعدام، كل شيء يهوي ويترمَّد، ثم ينحلّ في الهواء والماء والحليب والنار داخلاً أطواره الأرضية والنارية، ثم لا يلبث أن يتحوّل شيئاً آخر جديداً مختلفاً.

هي ذي الأرض تهتز تحت حوافر الحصان الجامح، بينما الفضاء يجتاحه خفق داوٍ لأسراب القطا السابحة مع مسيل الفجر. كان عقبة يتحول في هذا الاندفاع المفاجئ رجلاً آخر، مملوءاً بإحساس شبيه بالفيضان يدفعه نحو هدفه. الدليل طيور القطا التي ملأت الفضاء، وهذه الخيوط الحمر لشمس على وشك السطوع.

في الأفق الشرقي لاحت تلال بعيدة، ورأى فيما رأى أن أسراب القطا بدأت تدور راسمة دوائر لولبية. لابد أنها تقترب من الماء فابتدأت تنعطف هاوية من ارتفاعات عالية والحصان يخبّ تحتها. إن أجنحتها تلمع تحت الأشعة وهي تنقض باتجاه الأرض.

فجأة واجهته تلال عذراء من النخيل والعشب والماء. للحظة أحس وكأنه مسحور، أو أنه يسقط في أعماق حلم ملون وغريب.

بدا مع الأرض التي فاجأته كأنما يولدان بغتة من زواج سري حار ومضيء. ورأى نفسه يترجل عن حصانه ويتركه. مشى فوق العشب بين جذوع النخل، ورأى من وراء السعف كيف بدأت الشمس تشرق. وقال: ها قد وصلت مع الشمس!

كان يطأ العشب كمن يسير في النوم. بين لحظة وأخرى يتوقع انهدام الجدار الشفاف. أن يخرج الصوت العميق الجارح من الأرض والسعف والأشعة وذعر القطا ليواجه يقظته. الروح التي هوت في أغوار نسيانها القديم تصدمها الذاكرة بموجها الكهربائي صدمة الصاعقة للصخرة تشقّها فينبثق الماء الناري. واجتاحه فزع طفولي قديم وهو يعبر الأرض العذراء الدافئة وقد عاد إليها بعد غياب طويل، وبعد أن خرج منها شاقّاً غشاءها الرمادي باتجاه آفاق أكثر اخضراراً ولمعاناً. يومها تبع صوتاً داوياً من أعماقه. صوت كان أقوى من حبل السرّة الذي وصله بهذه الأرض التي تدوي الآن.

هذه المرة لم يفاجأ بها وهو يراها. كان يعرف أن القطا والأشعة والأصوات والعشب وحصانه، دليله إليها.

بدا الآن كأنما يعبر إليها فوق حبل السرة القديم، لكنهما كانا الآن شيئين مختلفين. لا الصحراء هي الصحراء ولا الزمن هو الزمن. بدت الأرض التي يعبرها الآن كأنها تترنح فوق صدر زلزال.

كانت خالية من كل بهائها الخارجي، مشبوحة على جذع نخلتين متعانقتين. موثقة بالحبال موشحة بالدم المخثر.

ورغم الجراح والضرب الذي تعرضت له، لاح في عينيها ألق لا حدود لبريقه. جراحها تتوهج تحت أشعة الشمس والندى، وتحت جسدها المدمى كان العشب يضيء الواحة الخضراء. كانت قدماها غائصتين في الأرض وحول ساقيها يتسلق العشب بينما استلقى

الرأس الملطخ بالدم على جذع النخلة، فبدا وجهها شامخاً يستقبل مشرق الشمس وعلى شفتها السفلى راحت نقطة دم تتفتح كوردة. واضحاً كان أن أمراً مؤسفاً قد حدث، لكن الذي كان أكثر وضوحاً وأسفاً أن وصوله والشمس جاءا في وقت متأخر.

بين الحزن والغضب تساءل: لماذا يتأخر شروق الشمس على هذه الصحراء. أتراه كان المكوث في الشوارع والمأوى طويلاً؟ وإذ اقترب منها ومسح برفق جراحها، ارتعد. كانت الجراح حارة ماتزال، وبدا جسدها العاري المنتهك مشوّهاً. غادره جماله القديم. لكن الدم المتناثر فوق أوراق العشب والمتخثر كقطرات الندى كان يشير إلى جوهر نقائها الممتزج بالعشب وآثار الندى.

هي ذي هناك أخيراً. حزينة، وحيدة، غريبة، تتوضأ بالدم. كان بإمكانه أن يمسها وهي في النزع الأخير.

لم يكن الحزن الآن مجدياً ولا تأنيب النفس. بالسيف قطع الحبال وحملها فوق ساعديه. اتجه نحو غدير ماء ووسّدها فوق العشب وبدأ يغسل الجراح. احتش أعشاباً سحقها وراح يقطر نسغها في الجراح.

كانت الشمس قد ارتفعت. بدت الصحراء خاوية، وراحت أسراب القطا ترحل. هما الآن وحيدان داخل هذا العراء العاري. ورأى عينيها تختلجان ببطء. كان في العينين وميض، وكان في العينين اتهام. وودّ لو يقول شيئاً ما كان نائماً تحت العشب، تحت قشرة الأرض الرمادية. لم يكن صدّ التهمة كافياً. كان لابد من معرفة ذلك الدمار الروحي الذي زلزل الوقت. الدمار الذي عكر البحار والأعشاب والريح ومنع شروق الشمس في أوقاتها. الدمار الذي غطى الأرض بكل تلك الروائح الكريهة، وشق النفس الواحدة على نفسها.

وهي تفتح جفنيها الآن على اتساعهما، أحس بأنه فعل شيئاً

سيئاً فيما مضى. رغب أن يوضّح لماذا انعطب الزمن وكيف انبثقت عصور الرداءة. أراد أن يهجس بشيء عن السجون والملاجئ والمنافي والقتل والهيجان البربري للبحر. شيء اسمه السم أو تلوث الهواء أو الطاعون، اكتسح الروح والزمن. خرق الجلد وشق اللحم ثم كسر العظم بعد أن استوطن الدم وبدأ يدير مراكز الدماغ والأعصاب.

لم يستطع أن يوضّح شيئاً. كان الصمت يتقدم وينتشر ويبكي ويضيء.

حين غابت الشمس وأقبل المساء، خيل له أنه فعل من أجلها ما يستطيع لينبض الدم من جديد. فعل ذلك داخل حالة من الغبطة والغضب والأسى والتأنيب.

لما تقدم المساء وسَجت الصحراء بكل جلالها واتساعها وصمتها الخارق للقلب وسّدها بين ذراعيه فوق العشب. وإذ وُلدت نجمة المساء وتلألأت من وراء التلال الشرقية، أحس بنبضها ينتقل إلى دمه، وراحت حرارة جديدة تنتشر في مسام جسدها ممتزجة بحرارته وحرارة الأرض. تساءل وهو يرقب النجم المضيء: ترى هل تولد الحياة مرة أخرى؟

المطهر

1

بات ليلته ساهراً قربها. أشعل لها ناراً، وقطّر الماء في فمها، وغنى لها أغنيتهما القديمة. وبين آن وآخر كان يمسح وجهها وشعرها وصدرها المغطّى بالجراح.

لم ينَمْ. في السَّحَر الأخير من الليل راح يشعر بنبضها وحركة جفنيها. كان السَّحَر رطباً وسمع طيور القطا تهدر عابرة فوق

الصحراء. ورأى شهاباً يهوي من مداره مارقاً كسهم من نار. وفكر بأن الشهاب نذير. ومع بداية الفجر الأول عبرت قطعان الأيائل فوق مطلّ التلال الصغيرة المجاورة. بدت تحت انبثاق الفجر كقافلة من البدو الرحل، بيضاء متباطئة يتقدمها وعل الطليعة اليقظ واثقاً حذراً.

كم بدا ذلك الليل طويلاً وثقيلاً. كان كقطار منهك يعبر نفقاً لولبياً في برارٍ موحشة. ولأنها كانت معه الآن في هذا الليل الطويل المضني، احتمل وطأة الوقت الشبيه بمدية تشقّ مجاري الدم.

هوذا نبضها مع الفجر الجديد يعود. كان قلبها الذي ينهض من العذاب والجراح والاغتصاب يقول شيئاً مسموعاً تلتقطه ذاكرة الأرض والقطا والنخيل والماء والريح. وكان هو يلتقطه أيضاً في هذا الهزيع المأساوي.

لابد أن يموت شيء ما قديم ليولد شيء آخر جديد. قال هذا لنفسه وهو يرى الفجر الآن يتفجر، منتشراً كالورد فوق الصحراء.

2

في ساحة المأوى أُعِدّ احتفال خاص بالعجزة. وسط الساحة كانت هناك حفرة أوقدت فيها نار.

حول النار تجمع نزلاء المحجر. كانوا يغنون ويرقصون ويثملون بابتهاج وثني غريب. وكانوا عراة.

عندما عبر عقبة مدخل الساحة حاملاً فوق ذراعيه المرأة الجميلة الجريحة، توقف الاحتفال فجأة وران الصمت والذهول والمباغتة. مدّد المرأة على حافة حفرة النار. تراجع النزلاء. كانوا الآن ومعهم عقبة في الطرف الآخر من الحفرة.

تكاثف الصمت. كان الذهول رعداً ينمو بين الكتلة الخائفة والنار والمرأة المسجاة.

قال عقبة خارقاً كثافة الصمت: انتهت الألعاب الصغيرة وابتدأت اللعبة الخطرة.

رجل من الكتلة سأل: ما لعبتك؟

قال عقبة: أنتم ترونها الآن جيداً. بيننا وبينها حفرة النار.

اللعبة أن نعبر النار عراة إليها ومن يصلها هي له.

كانت السماء الآن توالي بروقها الخاطفة، وراح الرعد يقصف جروح الأرض، عندما بدأت أجساد المنفيين العجزة تتفتح بورود حقول قانية.

بيروت *1975*

من هنا تعبر الحرب

1

بيروت الحرب

من هنا تمر الحرب الآن. تأخذ معها الأطفال والشجر، الرجال والحجارة، الفقراء والخبز، وسائر الذين ليست حربهم.

وقبل أعوام مرت الحرب من هناك. اجتاحت الصحراء، والمرتفعات، ثم اغتالت الجنود والأرض والفقراء، والذين لم تكن حربهم.

حزين أنا لأن حربي لم تشرق شمسها بعد. سألتها وهي تحاذيني: متى تكونين حربي؟

عن أسنانها الدامية كشفت. سألتني: وكيف أكون حربك ياصغيري؟ قلت وأنا أمتطي صهوة حصان من خشب: عندما تجتاحين عواصم الطغاة والتجار والكهنة والبوليس والكتب القديمة.

ضحكتِ الحرب مني متابعة حصادها المجاني الأحمق، وإذ أزَّ رصاصها الأعمى قرب دمي اكتأبت. قلت لحصاني الخشبي المندفع: زمان طويل سيمر قبل أن يشرق فجرنا الأرجواني الجميل.

2

خبز بلون الشمس

الأيدي التي امتدت كانت ترتعش. منذ الفجر الأول وهي ممدودة. الأيدي التي تمتد لم تكن تستجدي خبزاً. بين الأصابع كانت النقود تلوح أمام باصرتي أبي حسن الفرّان المنتصب فوق منصة.

صوت: أبو حسن. أنا بعرضك. والله الأطفال تحت الرصاص يرسمون شكل الرغيف على التراب والحيطان.

صوت: أبو حسن. أنا بعرضك. والله. تحت الرصاص والقنابل من الخامسة صباحاً. ستة أولاد ينتظرون ويتضورون.

صوت جديد: أبو حسن. أبو بلوط. أبو إبليس. رد علينا يلعن... بين الحشد يضيع صوته. بعد لحظة يرتجل خطبة غريبة، غامضة، مفعمة بحنق: يا عمي ابن زانية من يتزوج. تشتهي رغبتك ثقباً فتفتحه. بعد فتحه يتفتح لك ألف ثقب يطلب خبزاً. من أين تطعمهم؟ يقولون لك رزق الغد يأتي مع الغد وابن آدم يأتي إلى الدنيا معه رزقه. آ. رزقكم في السماء وما توعدون. هوذا وعد السماء يمطركم بآيات الرصاص. هذا رزقكم الدائم.

صوت: طوّل بالك. الرزق من الله وأما بنعمة ربك فحدث.

ـ عندما يكون رزقك من أبي حسن ولا يرد عليك؟ يا عمي العربي مغفل. حياته أكل ونوم ونسوان. أرنب يلد ويرمي في الأزقة. رأس فارغ محشو بالخبز والجنس ولا حساب لأيام الضيق.

كان يزحف ويزاحم من آخر الحشد وهو ينادي بعد أن نفد صبره:

ـ يا عمي من يأخذ هؤلاء الأطفال ويريحني. لا السماء تنعم ولا العبد يرحم. ثم هذه الحرب الملعونة. آه. آه. الحمد لله الذي جاءتكم أيام الضيق أخيراً يا أولاد العاهرة.

صوت: ما لك يا عم؟ جننت! الصبر مفتاح الفرج. الوقت وقت حرب والناس كلها محروقة.

كان الصوت يوجه كلامه لجاره الخطيب، للرجل الغاضب: مصيبة. يا عمي لا دخل لنا بهذه المحنة. حرب انتخابات وزعامات وعرب وأمريكان وإسرائيل وطوائف. الشعب خارجها. من لم يمت بالرصاص منا سيموت بالجوع. لبنان صار أخيراً مخبر تجارب لجثث الفقراء. ليذهبوا إلى إسرائيل ويقاتلوها. عربان أمريكا عجزوا عن تحرير فلسطين. حولوها ضد لبنان والفدائيين. انظر. انظر. العسكري وحامل البندقية وابن العائلة يأخذون الخبز أمام عيوننا ونحن نتفرج، ومع ذلك تقول لي: طوِّل بالك. الحمار والحجر من لا يثور في هذه الأيام السود.

بدا الآن في قمة غضبه وهو يخترق الحشد ويصيح: يا أبا حسن. يا أبا كلب. يا ابن الزانية. رد علينا. نحن بشر أم حيوانات؟

أبو حسن الفرّان صامت. أخذته الضوضاء والزحام. عيناه تبرقان وهو يرى النقود ترفرف. خلال ساعات استمر يوزع أكياس الخبز الورقية. وزعها على مراحل: الأولى للعساكر والشرطة، والثانية لرجال الأمن والمخابرات، والثالثة لحاملي الكلاشنكوف بعد أن أطلقوا رشقات رصاص إرهاباً وإنذاراً.

الأصوات تعلو. الأصوات تمتزج محتدمة: الخبز. الخبز. الخبز.

الأيدي المرتعشة ماتزال ممدودة.

همهمات تحتج على توزيع الخبز غير العادل.

أبو حسن يخرق الصمت: لم يبق إلا الكعك.

أصوات: أعطنا كعكاً.

الشمس الآن في الضحى.

فجأة انفجرت المدينة. القنبلة التي سقطت وسط الحشد، أخمدت

الأصوات. بترت الأيدي الممدودة. رسمتها أشكالاً سريالية فوق الخبز والجدران التي تصدعت.

كان الخبز الآن منثوراً كأزهار القرنفل فوق الجثث، بينما كان أطفال الآباء المقتولين يحلمون بخبز حار، يرسمون أشكاله بلون الشمس.

3

غابة الفزع

الرجل الذي ينهب الشوارع جرياً رجل غريب. وفي هذه المدينة الغرباء مكروهون أو مقتولون. الرجل المستتر بالليل وجدران الأبنية قتيل مؤجل.

لقد بدأت جراثيم الكراهية تنمو وتنتشر طيلة أشهر الرعب والحقد الأعمى. كانت تتغلغل في الشوارع والأحياء والنفوس، ثم تنطلق لتسمم الريح، تاركة بصمات الدم على بطاقة الهوية.

صمت. سكينة المدينة هدوء مقبرة تدفن موتاها بلا طقوس.

المدينة تحولت إلى غابة.

بين الثانية والثانية ينبثق برق في جسد كان إنساناً، فيتشظى.

هو ذا الموت إله المدينة الأعمى يطوف الليل باحثاً عن أحبائه.

الرجل الغريب، عابر الشوارع يتوجس البرق في الثانية القادمة.

ليل المدينة المرتجف، يعزف موسيقى جنائزية يرتجف القلب منها.

ـ في غير مكانها وغير أوانها تندلع الحرب. حربهم! أفكاره

وهو يندفع هارباً نحو البيت البعيد، كانت مفككة. لقد شوشه الفزع والشعور بأن طلقة الموت المجاني تجثم في منعطف ما. في المنعطف القادم: أن يموت في غير معركته!

وفكر بأن أسعد المخلوقات الآن: الخفافيش والجرذان والصراصير.

وداهمته حالة تحوّل. صار صرصاراً.

كان يدبّ الآن على الجدران المظلمة. ينعطف نحو الأخاديد والثقوب، ثم لا يلبث أن يتشمم رائحة البالوعات: لا بد أنها أكثر أماناً الآن. ينحدر على حواف البواليع متحسساً بقرنيه مواقع الخطر والأمن والمياه الملوثة. بعد أن يعبر الجدران الملساء العارية يفكر بأنه ربما أخطأ طريق النجاة.

وهو يعبر حافة البالوعة، يبهره ضوء فيهرب نحو ظل حصاة. يسمع وقع أقدام قادمة فيندفع نحو جذع شجرة.

من عبّ الشجرة يثب هرّ نحو الأرض مذعوراً. الصرصار الهارب يملؤه الجزع.

كان الرجل يهرول الآن، فارّاً نحو خرابة مهجورة. عندما يقترب منها تنفجر الأرض بدوي هائل يغطيه بترابه المتناثر.

4

المسيح يتبرأ

صباح يوم الأحد نزل المسيح ليتفقد المدينة الهلعة ورعاياه.

كان قلقاً طيلة اعتكافه في صومعته. لقد جاءه الأطفال العراة والجياع، والأمهات الثكالى، والمشردون، والمشوهون، والجرحى، والذين ليست حربهم. قالوا له: إن كنيستك قد تقوضت.

دهش يسوع وأصابه حزن عميق، فقرر مغادرة صومعته والنزول إلى المدينة التي تحترق.

تجول المسيح في الأحياء والساحات والشوارع، ورأى بعينيه البريئتين كيف تهدمت المدينة واحترقت. بكى ابن الله حتى بلل الدمع وجنتيه الوديعتين ولحيته الجميلة. قال كسيفاً: أبي الذي في السماء كيف تحولت المحبة إلى رصاص؟

عندما عاد من المدينة نحو صومعته، كان وقت منع التجول قد بدأ.

انطلق الرصاص. سار المسيح هادئاً باتجاه أحد الجدران ليحتمي من النار.

من الطابق العاشر كان القناص الفاشي يسدد بندقيته. عندما تطابق صليب التسديد الأسود مع رأس المسيح. ضغط القناص على الزناد.

بالجدار ارتطم جسد يسوع الضعيف. زحف، ثم تكوم على نفسه فرأى دمه يسيل. مد أصابعه فغمسها بدمه الحار وكتب على الحائط: أنا لست مسيحياً. اغفر لي يا أبي.

طلقة القناص الفاشي الثانية، أسقطت يد يسوع قبل أن يتمم جملته فهوى ميتاً.

5

الرأس المطلوب

القنبلة التي انفجرت في أحد شوارع المخيم، صهرت الوحل بالدم. تبعتها قنابل راحت تتساقط كقناديل.

المخيم يصد الهجوم المشترك. كان الآن يُشرع صدره العاري ورأسه في وجه قوات التدخل وأحقاد الفاشيست.

المخيم الصامد صمود ستالينغراد، يرسم في هذه البرهة المضيئة من الوقت، علامة النصر بالدم، ثم يرسم بالوحل تاريخ العار.

كانت الأرض تهتز تحت عنف ووحشية الدويّ، بينما رؤوس الأطفال وأذرع النساء تتناثر كبذار في حقل يُحرث.

بعد هدأة من القصف، تخترق طائرات جدار الصوت في سماء بيروت الناصعة.

شظايا القنابل التي أطلقها الفاشيون، جمعها من بقي من أطفال المخيم. قرؤوا عليها: صنعت في إسرائيل.

بقوة الرعد ينطلق رصاص وزغاريد وراء نعوش شهداء كفنوا بعلم فلسطين.

يسأل طفل أمه التي تزغرد: لماذا بدل البكاء يطلقون النار في جنازة الشهداء يا أماه؟

تقول الأم: نسي الفلسطينيون البكاء. دمعهم تحول إلى رصاص يا بني!

يدهش الطفل. يجتاحه انفعال كموج البحر. يرنو إلى الجنازة ثم يرفع بصره إلى السماء. بإبهامه وسبابته يشكل مسدساً، يسدده نحو الطائرات التي تخترق الفضاء: دي. دي. الفلسطينيون لا يبكون.

بيروت *1976*

رقصة البراري الوحشية

1

الجسد

الصيف. الأرصفة تفيض. عالم أبيض مضاء. حركة الصباح سريعة منعشة. وقت من أوقات الطفولة المفعمة بالدفء يلفح القلب. وقت يعبر ويتدفق قادماً مع ريح التلال الخضراء. الريح المشبعة بروائح العشب وأوراق الغابة وامتداد البحر.

الساحة. طفلات المدارس البالغات يعبرن بأثوابهن القصيرة الملونة. وجوه وردية تنضح بالصحة والحيوية. الريح التي تهب ترفع قليلاً ثم أكثر الأثواب القصيرة. فجأة يلمع الصباح. يتوهج الصيف هناك منعكساً من مرمر اللحم الأبيض والأسمر. روائح العشب والبحر تغيب.

الجو الآن يموج برائحة شيء حار، لذيذ ومؤلم.

على طوار الرصيف المقابل، داخل المقهى الزجاجي، وجه غريب عن العالم. وجه محايد يمضغ علكة بحركة رتيبة. إذ تعبر فتاة ترفع الريح ثوبها، يضغط العلكة بين أسنانه محدثاً انفجاراً محدوداً.

إذا أغفلت شبكية عينيه المحرورتين، فإنه يبدو عائم الوجه، محايداً كصخرة وهو يراقب الصيف والأشياء.

غير أن شيئاً آخر خلف هذا الحياد يمكن أن يُرى. نوع من امتعاض مشوب باشمئزاز قاس. حركاته داخل المقهى وسط الضجيج الميكانيكي للبشر، تتسم بقليل من العصاب. ومن يراقبه بدقة يشك أنه يفكر بشيء ما.

لكنه هناك فقط. يجلس على كرسي وأمامه طاولة عارية. قدمه اليسرى تلتف على فخذه. يد سائبة مدلاة تبدو وكأنها نُسيت هناك. بينما الأخرى على سطح الطاولة تتحرك أصابعها بإيقاع رتيب لا معنى له.

هذا الرجل الجاثي وراء الزجاج، بينه وبين الخارج ستارة بيضاء ثم الزجاج. عيناه الحادتان كعيني صقر تخترقان الستارة والزجاج والشوارع والأجساد. تخترقان الوجوه والصدور نصف المفتوحة، ثم الأفخاذ التي تخطف البصر وتحرّ الدم.

ومع أن الوجه الجاثم خلف الزجاج يبدو مبحراً في استقلاليته وتوحده الخاص، إلا أن شيئاً ما يمكن أن يتحرك وراء هذا البرود، وإذ ذاك يُزاح الحياد ليكتسي الوجه تعبيراً آخر ينضح بالألم والشهوة.

إن الرجل الجالس على كرسي المقهى، دائب التحول. أعماقه تتموج برغبات سرية، تقطن مداره الناري. مدار الحواس الخمس مركز الطاقة والاندفاع.

منذ زمن عصي على التذكر اتخذت الأشياء هناك شكلها الصلب الحار. تحولت من عالمها الموضوعي، منجذبة بقوة خارقة لمسار العقل، نحو مدار النار والحس حيث المطلق والخاص وشهوة الامتلاك الوحشية. لقد دخل في هذا التحول المكانُ والزمان والبشر. جميع المعادلات بدت كأنما صُهرت في أعماقه على صورة رغباته.

كان اسمه محمد. لكنه بعد سلسلة من الإجراءات الخاصة والتمارين العضوية الشهوية المؤلمة، عُرف باسم الأزرق.

إن حركة سيره وهو يتبختر بجسده السبارطي، والريح تداعب منديله الأزرق الملتف حول عنقه، وشعره المتماوج على كتفيه، تذكر بحركات الممثلين المشاغبين.

في ذلك الوقت وهو يخترق الأرصفة والبشر، كان يخيل إليه أن العيون منصبّة عليه. العيون الخائفة المدهوشة بمشيته الرياضية: هو ذا الأزرق!

ربما سمعها تدوي في أعماقه فيزهو. نبض الارتعاش الداخلي يصعد عبر دمه. تمتد قامته عالياً فيختال كطاووس ماسحاً بعينيه الحادتين ذباب البشر العابر.

- الأزرق وحش المدينة الجميل. ساحر الفتيات وصاحب المدية القاطعة التي لا ينضوها إلا لتُزرع في قلب رجل يستحق الموت.

إنه يرى في الوجوه العابرة، وفي الواجهات البلورية، وفي الفضاء المضيء، وجهه الصلب الأسمر. الوجه الذي قالت عنه امرأة يوماً: في وجهك البربري قسوة تشتهيها النساء ويرتعد منها الرجال.

وفي شوارع المدينة التي يحدها البحر من الغرب والغابات الأفريقية من الشرق، كان الأزرق قد أثبت وجوده بين عصابات السطو والمتشردين والسكارى والمقامرين والمساجين والشرطة.

ابتدأ ذلك غبّ يوم شتائي في قرية نائية من قرى جبال أوراس. يوم ذاك أنّبه أبوه بعد هجره للمدرسة وسيره في طريق التشرد والسرقة. وفي ذلك المساء احتدم النقاش بينهما فحاول الأب تأديب الابن بالضرب. غير أن الأزرق آلمه الضرب القاسي على رأسه فثار ورغى: كفى. كفى. أيها المجنون أنت تقتلني!

عندما ازدادت وحشية الضرب، اندفع الابن اندفاعة نمر مهتاج. لوى ذراع أبيه وصفعه ثم طرحه أرضاً ساحقاً وجهه وأسنانه، ثم فرّ من البيت ولم يعد.

يذكر الآن وهو ملقى على كرسي المقهى شظايا من حواره مع أبيه: يا حلوف. يا كلب. أتضرب أباك. كيف ستلقى ربك يوم القيامة يا عدو الله؟

وكما يذكر وجه أبيه الذليل الدامي، يذكر كيف لعنه وبصق نحو السماء: اذهب أنت وربك عني. منذ الآن سيكون الأزرق إله نفسه وأباها!

2

الثأر

كان يهبط المدينة التي قاتلت الغزاة بعد أن احتلوها لسنوات مليئة بالمرارة والرعب والوحشية. لقد وصلها في الأسبوع الأخير من رحيلهم. الأسبوع الذي سمي أسبوع الرعب والدم. في تلك الأيام الخاطفة شاهد الأزرق كيف كان الغرباء يقوّضون المدينة بالانفجارات، وكيف بدؤوا عمليات صيد الأطفال وقنصهم، ورأى ذبح الشيوخ وافتضاض بكارة الفتيات النضرات في الشوارع والساحات.

كان الغزاة يحتفلون بطقوس حقدهم وهزيمتهم على ذلك النحو الفاجع وكأنهم يقيمون ألعاباً في مهرجان صاخب ملون بالدم والنار والتشفي والفوضى العمياء.

في أسبوع الدم والانفجارات عبر الأزرق طريقه الخطرة.

لقد أصابه قتل الأبرياء من العجزة والنساء والأطفال على ذلك النحو المجاني، بما يشبه الغثيان، انفجر فيما بعد حقداً مباغتاً.

هو ذا يتحاشى الشوارع الرئيسية، عابراً المنعطفات المظلمة بسرعة. فجأة تئز طلقة تصيب جداراً.

يتجمد الأزرق لحظة في العتم مراقباً انبهاق الطلقات من إحدى النوافذ. يعرف النافذة ويحدد البيت المسيّج. حذراً يتقدم ملصقاً ظهره بالحائط، وبخفة فهد يتسلق جدار البيت. تجرح يده شظايا زجاج مغروس على حافة الجدار. يثب إلى الدار مختفياً بين الشجر. بعد أن يتوقف إطلاق النار، يتسلق شجرة مجاورة لنافذة المنزل ويربض هناك. قبل الفجر يحطم زجاج النافذة ويدخل حجرة. في صالة البيت التي تضاء على صوت الحطام، يباغت الأزرق خصمه. وعلى البلاط الأبيض اللامع، يطرح المعمِّر الأشقر الذي جحظت عيناه الخضراوان تستجديان شفاعة. ببرود يجثو على صدره كاتماً صوته، ثم ينتضي مديته ويذبحه كخروف ثم يفرّ.

وهو يعدو هارباً تمر أمامه شظايا ما روي له في طفولته عن وحشية الغزاة، ومعسكرات التعذيب، وعمليات الإبادة والحرق والاغتصاب، وما شاهده في أسبوع الرعب.

هذه الشظايا انصهرت في الأعماق مع الشمس والعزلة، فنشرت ظلالاً كثيفة من الكآبة والسوداوية والرغبة الجامحة نحو الموت.

3

العار

بعد القهوة في النهار ومجّ عشرات اللفائف، واحتساء البيرة بهوس وشره في الليالي، يبدأ العالم الآخر للأزرق وحيداً أو مع أفراد عصابة من ذئاب المدينة.

لابد من مخزن للسطو، أو الإغارة على مخدع امرأة ثم الصدام الدامي مع متشردي ومخموري أواخر الليل، بعدها يهدأ الهدير الوحشي للدم الساخن في الأعصاب.

- البوليس أولاد العاهرة. يقول الأزرق لنفسه وهو يرى سياراتهم الزرقاء تجتاح الشوارع بصفيرها الحاد.

- لو أمتلك رشاشاً وأحصدهم حصد الكلاب!

هؤلاء الذين احتلوا المدينة بعد رحيل الغزاة زادوا كتلته الداخلية صلابة. إن نفسه تتحول إلى أرض بركانية دائمة الغليان وهو يراقبهم في كل حي وكل منعطف، في الساحات والمدارس والمعامل والحدائق وعلى شواطئ البحار.

- آه. هؤلاء الخنازير!

يضغط على أسنانه ثم يبصق باتجاه السماء الزرقاء.

في السجن يسأله مفتش الشرطة ساخراً: هاه. كيف ترى نفسك الآن. لابأس يا سي الأزرق. كيف عزمك؟ وهو يحدق في وجه الشُّرَطي يلمح في عينيه شهوة القتل.

- لقد وقعت يا الأزرق. هجس لنفسه.

بعد أن أُطلقت حريتهم في المدينة تحولوا إلى صيادين. الأوامر تؤكد على تثبيت سلطة الدولة، وتبيح تصفية جميع الخارجين عن القانون. والأزرق هذا الوحش الخارج يعكر أمن الغابة.

- يا ابن العاهرة يا الأزرق وقعت أنت وعصابتك. تعتقد أن الدولة أبوك تدوس رأسه وتمشي. هاه. نشوف كيف ترجع إلى أهلك امرأة بلا بكارة يا حلّوف. يا ولد الزنى.

كانت العصا تنبثق الآن من أحد أدراج المكتب لتهوي فوق جمجمته. الضربة الثانية أصابت المركز الخلفي من مؤخرة الرأس فانبهقت نار حمراء أضاءت العالم. صاح الأزرق كوحش يذبح: آي آي. قتلتني يا حلّوف. يا كلب الدولة.

اندفعت النار في الشرايين والأعصاب، ثم تدفقت نحو الخارج. وراح مركز الإصابة يرنّ ويتوهج. وابتدأت طيوف قرمزية تنداح في فضاء عالم قاس.

الضربة الثالثة تلقاها الأزرق بكلتا يديه الموثقتين المرفوعتين، وكما يندفع ثور مهتاج إلى حلبة مصارعة غرس الأزرق صدغه ويديه في وجه وبطن مفتش البوليس. هشم وجهه وحطم بعض أضلاعه ثم سحق رأسه بلا شفقة كما سحق وجه أبيه يوماً.

إثر ذلك يمضي الأزرق الخارج على القانون ثلاثة أشهر في مستشفى السجن، يتداوى ويضمد عار مؤخرته التي افتُضت في الزنزانة.

4

الكابوس

كان الأزرق منتشياً وهو يرى المدينة تحترق. ورأى أنه يطير في سماء من النار والدم. كان الحريق يلتهم أبنية الشرطة والسجون والجوامع والمتاجر ومقرات القضاة والثكنات. جميع تلك الرموز والأوثان القديمة التي دمرت روحه ومسختها، كان تترمد تحت عصف النار. وشاهد نفسه يرقص عارياً فوق تلال خضراء. وخلال رقصته كانت تخرج من جسده بثور ودمامل وجراثيم ذات روائح كريهة. وإذ يتوقف الرقص يقذف بصفائح مواد ملتهبة ليزيد وقد الحريق. ومع اندفاع أمواج اللهب كانت رغباته تندفع من سجونها، محطمة الكوابح التي ضغطت روحه الراقدة تحت طبقات النار.

الآن يتطهر عائداً إلى جوهره الأصلي، وها هي ذي النار تعري الرغبة لتوقظها من عبودية نومها وتساويها بأصلها الأول. وها هو الأزرق يصيح في هذا المهرجان الطقسي الملون، بأصوات بدائية لها معنى ولا معنى لها.

لقد بدأ طائر الروح ينطلق من قفصه لتبدأ الغابة والبحر.

- إلى الجحيم أيها الميراث الطاغي!

كانت المدينة - الكابوس، مدينة الفزع والاعتقال والجوع والقتل، قد تحولت إلى جحيم محترق.

بابتهاج وثني يرفع الأزرق جناحيه عابراً مدينة الأنقاض باتجاه الغابات. وبهدوء طفل عيناه بلون البحر والسماء يستلقي فوق العشب الأخضر وينام عارياً بين ذراعي أمه.

5

مشهد البحر

خارج المدينة ينمو البحر. طفل إلهي أزرق لكنه مفزع وجليل أيضاً. البحر والغابات الأفريقية العذراء تطوق المدينة. المدينة التي يراها الأزرق قفصاً أو مقبرة. إنه يتحرك في سراديبها حركة وحش قذفت به الغابات نحو هذه الحظيرة. في الشارع والمقهى والخمارة وغرفة البوليس والزنزانة، لا يسمع غير أصداء التدجين والتآلف والانسجام والطاعة. وهو يتلقى هذه الأصداء ينفر.

يداهمه شعور بالغثيان فيبصق. إحياناً يخرج إحليله في عرض الشارع ويكتب بالبول كلمات بذيئة ضد الدولة والبوليس والمدينة والله والآباء والأوامر والنواهي والأخلاق السائدة.

ثم يندفع صارخاً صرخات وحشية عبر المدينة نحو الأدغال.

لكن جرح السجن كان عميقاً هذه المرة. ومع أنه يشعر وهو ملقى على كرسي المقهى بضرورة اختراق شرطه الإنساني نحو مطلقه الطبيعي، إلا أنه يدرك الآن أن حركته السريعة نحو الهواء الطلق باتت مقيدة.

كان لابد له أن يفعل شيئاً ليمحو الوصمة. ومع أنه تأرق في

لياٍل عديدة حالماً بمضاجعة الذين افتضوه، وقتل كل شرطة المدينة، ونسف السجن، إلا أن تلك الكوابيس البديلة والمريحة للأعصاب بدت كمخدر عارض لا يشفي الجرح.

الآن يجلس الأزرق باعتكار أقل تحت هذا الضحى الساجي. إن أشعة الشمس الاستوائية وهي تخترق الرمل والرؤوس وأعالي الأشجار يمكن احتمالها قرب البحر.

تحت هذه الشمس البدائية يبدو الاستلقاء على دثار الرمل الحار نوعاً من استراحة الهدنة. هذه الاستراحة تحت هذا السطوع الأبيض تورث البهجة وتوهج الأشياء بعد عامين من السجن المنفرد. الآن قلب الأزرق الطفل يتفتح كزهرة في فجر، عارياً نشواناً بين أجساد الفتيات والنساء العاريات فوق الرمل.

على بعد مترين منه تستلقي فتاتان. إحداهما تضغط ثدييها بحرارة الرمل، بينما يستقبل صدر الأخرى وفخذاها قُبَل الشمس.

الفتاتان تتهامسان بصوت مسموع وهو يرمقهما بطرف عينه اليمنى ويستمع. لابد أن الحديث قد انتقل إليه الآن.

- أليس هذا الأزرق؟

- انظري إلى عضلاته وصدره الوحشي.

- أوه. ولكن أتراه يضاجع بالطريقة التي يقتل فيها؟!

- هل تراهنين على طول عضوه؟

- اسمعي. أتعتقدين أنهم فعلوها معه في السجن كما يشاع؟

تقهقه الأخرى وهي تشكل الصورة: في هذه الحالة لابد أن عضوه قد ضمر وتحول إلى فرج بعد العملية.

- ها. ها. ها. وفي هذه الحالة سينافسنا في اصطياد الرجال.

تغيبان في ضحكة مشتركة فاسقة. لابد أنهما تتصورانه تحت

العملية يدخل في مؤخرته قضيب رجل ويخرج تحت بصر الخنزير الضاحك الذي هشم أضلاعه.

يعتكر مزاج الأزرق من هذه التصورات. تصير الشمس والبحر والفتاتان بقعاً حمراء متراقصة. ها قد رنّ جرس الرأس رنينه الصاخب.

بوثبة قط برّي يرى نفسه في محاذاة الفتاتين. تذعران. يباعد ساقيه محاصراً لهما. هما الآن بين ساقيه. تنقلب المستلقية على ظهرها. عيونهما تواجهان قامة منتصبة عملاقة ووجهاً ينضح مرارة ورعباً وكراهية.

ـ خذا. هذا هو! إنه لكما.

كان ينتضيه ويهزه بكلتا قبضتيه طويلاً منتعظاً ملفوحاً بالشمس.

ـ هل يكفيكما أيتها العاهرتان؟

لكن سي الأزرق لم يرتحْ رغم تَشفّيه إثر حادثة البحر وبعد خروجه من السجن، إلا بعد أن استدرج اثنين من العصابة التي اغتصبته إلى الغابات. هناك أخمد الأزرق ناره بعد أن أوثقهما ثم قطع إحليليهما وتركهما ينزفان بين الأشجار.

6

مشهد القتل

المقهى مرة أخرى. الأرصفة تومض تحت شمس الصيف. الستارة البيضاء المسدلة فوق الزجاج الأبيض تنفذ منها حرارة بيضاء. نهار كالكفن. من الأجساد نصف العارية للطالبات والمومسات والنساء العابرات، يشع لهب ساخن يشعل الرغبة. سي

الأزرق يتململ فوق كرسيه. المركز الحار للطاقة يتمدد فيشعر بالحريق. هاقد بدأ الرنين الوحشي للرأس والأعصاب.

يثب. جسد متوتر يضج بالحيوية والرغبة. نداء واحد عنيف يلف الجسد كإعصار: القتل أو الاغتصاب. هو ذا يتبع بخطوات غير متزنة فتاة تدق الرصيف. تنعطف فينعطف معها. نصف ظهرها عار. بين لحظة وأخرى ترفع الريح ثوبها. يتوهج سروالها الداخلي الأحمر تحت الأشعة. حرارة الأزرق ترتفع ويتسارع نبضه. إنه يتعرق. وليحقق نوعاً من التوازن الداخلي يزفر ثم يصفّر. صوت صفيره معروف. بتركيز يراقب إيقاع مؤخرتها المنسحقة تحت ضغط سروالها وقد نتأت تقاطيعه خارج الثوب الشفاف.

صارت الآن تحت مرمى سمعه ويديه: أوه. ياللقبة الرخامية الملساء! امرأة أنت أم عذراء يا نعجتي الجميلة؟

يقول ذلك وهو يضغط باطن كفه على المؤخرة الإسفنجية التي تتأرجح. تُذعر الفتاة. تلتفت فيتواجهان في منعطف خال:

ـ أوه هذا أنت؟

ـ فتاة البحر! يا للمصادفة السعيدة. إنه لعرس حقيقي إذن!

ـ آ. استرني يا سي الأزرق. أنا...

كفه العريضة فوق فمها الآن تغطي نصف وجهها. إنه يضحك ضحكة مجونية. من أسنانه ينز شبق أبيض ينضح من وجه محروق.

وكما يجر ذئب نعجة إلى وكره، سحبها إلى مدخل عمارة مظلمة.

ـ لو صحتِ سأقتلك.

كانت المدية تمتد الآن فوق رقبة الفتاة ومنها يلمع ومض الموت.

ـ آي! سي الأزرق أنا بعرضك.

- ها. ها. هل قلت عرضي؟ أنت الآن عرضي.

- أنا صبية عذراء يا الأزرق.

- لابأس. سنجري اختباراً صغيراً يا نعجتي نكتشف فيه من الرجل منا ومن المرأة.

كان يسندها إلى الجدار بينما انطلقت يده ترفع الثوب وتمزق سروالها.

- تناوليه يا نعجتي. هو ملكك الآن.

أخذ يدها ووضعه ملء قبضتها: سمعت أن أخاك بوليس. وإنك شكوتني إليه إثر حادثة البحر! قولي الحق.

- ولكنه لم يؤذ أحداً في حياته. قالت الفتاة وهي ترتعش.

هل رويت له الحادث أم لا؟

- لا. أبداً.

- الذي يؤذي الأزرق لن ينجو. في هذه المرة هذا لك وفي الثانية لبوليسك القذر يا نعجتي.

ضغطها على الجدار. تأوهت الفتاة. غلغل وجهه في وجهها ثم صدرها مخرجاً ثديها. آهت بتوجع. كان يوغل فيها وهي تجاهد ضامّة ساقيها. تقوس ظهره قليلاً ثم اندفع فارجاً فخذيها معتصراً الجسد الإسفنجي بين جسده والحائط.

- آه. يا أزرقي الرائع. كن عاقلاً. أنا عذراء. آي.

كانت قد تراخت تحت طعناته تاركة له فسحة من حرية الحركة.

فاض هياجه فراح يخور كثور يلج بقرة.

جسداهما تحولا إلى كتلةٍ تنصهر.

بحركة بطيئة مهتاجة، وكما تخترق سكين جرحاً اخترقها فندت عنها صيحة مكتومة ممزوجة بالألم والشهوة.

لقد انتصر الأزرق. عاد إليه الآن نبضه الطبيعي فتراءى له الصيف يمتد فوق المدينة وشاحاً من الضوء المرمري الهادئ المغبط.

7

ظهور الروح

هو ذا الأزرق مطارد ومطلوب. القانون يطلبه بينما يهيم وحيداً فارّاً عبر البراري. لقد كسر لص مهووس ومنحرف هيبة القانون وشرخ الأخلاق. بهذا وصَموه وهم يطلبونه. خلال فراره عبر الوديان والغابات المحيطة بالمدينة، سطا على المزارع وبعض المنازل المنفردة ليأكل، واضطر في بعض الليالي للنوم جائعاً في العراء أو داخل جحور وكهوف الجبل. في الهواء الطلق بين الأشجار والصخور يعود الأزرق إلى حالته النقية. بين الصخور يقيم مملكته الخاصة. الأرض والريح وهذه السماء اللامحدودة، تتغلل في عروق جسده، فتتفتح المسام التي أغلقتها المدن الملوثة وروائح الخنازير وآيات الآباء وتوابيت المقاهي والخمارات والمتاجر. تشفّ روح الأزرق وتعود له طفولته المفقودة. الطفولة التي انتُهكت.

الطيور والوحوش وحيوانات القفر، وهذا الصمت الفسيح للأرض والفضاء، تمنحه شعور الغبطة والسلام.

ـ من كان أكثر قسوة؟ سأل نفسه.

ـ كنت مخطئاً في الاختيار يا سي الأزرق. صوت غامض جاءه من الخلف.

استدار مذعوراً: يا إله الشياطين من هناك. أنس أم جن؟

وثب والمدية في يده.

على مطل الصخور كانت تقف. مسح عينيه ليزيح غشاوة الحلم: من أنت؟

كانت تطل عليه كطيف. عملاقة. شفافة في فجر ساحر، وجهها في لون زهر البراري. تراءت له مشعة داخل هالة من الضوء.

ـ ما الذي تفعله هنا؟

وتحرك حركة بطيئة كمن يعبر فضاء. جلس فوق حجر. دفع أصابعه في ثنايا شعره المسترسل. كان يفتح عينيه ويغمضهما بصعوبة.

عندما رفع وجهه إلى الأعلى اندفعت الريح من وراء الصخور الجرداء العالية.

وعادت إلى الظهور. كانت ماتزال فوق الصخور والريح ترفع شعرها القمحي. قربه سقطت حصاة قذفتها إليه. ابتسمت: أأنت أصم أم معتوه. قل ماذا جئت تفعل هنا؟

نهض عن الحجر ومشى. كان يطأ العشب الندي بينما الفجر يتنامى. ما كان باستطاعته أن يرقى الصخرة. قوة خفية كانت تمنعه. وانفجر ضوء الشمس الصاخبة في عينيه. شيء ما شدّه إلى الخلف فاستلقى بين أوراق العشب.

كان صباحاً مبهجاً. على شجرة غنى طائر أغنية عذبة. بعد قليل أقبلت طيور ملونة جميلة وأقامت مهرجاناً من الغناء والفرح. سُحر الأزرق بهذا الاحتفال. اجتاحه فرح غريب طاغ فاندفع يغني ويرقص ويضحك.

8

السرّ

عادت فتاة البراري إلى الظهور. بينها وبين الأزرق دائماً تلك المسافة. والأزرق لا يفقه شيئاً من الأمر. إنه يدفع الكابوس ليتقرى الحقيقة من الوهم، لكنه يظل على عتبة التيه.

ـ لقد أخطأت يا الأزرق. الطريق لا تمر من هنا. طريقك؟

ـ من أين الطريق إذن؟

بدت مختلفة عن فتيات المدينة. هذه الهالة من السحر المرتسمة فوق وجهها العذب البريء. لماذا وجوه فتيات المدينة تنضح بالعهر والشهوة؟

يذكر الأزرق ظهورها الأول، لكأن العشب تفتح عنها، أو أنها سقطت من نجم بعيد.

كانت تعرف أن الأزرق فارّ من جحيم المدينة التي تطلب رأسه. وإذ بدأت تتحدث عن تاريخ المدينة القاتلة وبؤس الناس وجوعهم واغتصاب الطغاة ووحشية غرائزهم، ثم انتقلت للحديث عن القتلى والشهداء والمعتقلين والمنفيين، بدا حديثها غريباً مباغتاً.

روت للأزرق حادثة موت أبيها تحت التعذيب ودفنه هنا في هذه البراري، وأنها تأتي إلى هنا بحثاً عن روح الأب الهائمة والتي تطلب الثأر.

وسمعها تردد كلمة رنت في أعماقه كالناقوس: الحب والقتل لا يتعايشان. إما الحب وإما القتل.

كانت تتحدث على نحو سري خافت، بينما الأصيل يسيل عذوبة فوق وجهها الناضح حزناً وجمالاً.

ورغب الأزرق أن يقول شيئاً عن نفسه وعذابه الداخلي وتاريخه الأسود، إلا أنه كان يشعر بالعجز.

كان وجهها يمنح الثقة والأمان. ومن ذلك الوجه الشفاف الحزين يمتد شعاع دافئ يغمر أعماقه بالحبور والسلام.

الأزرق يتحول وهو يستمع. يشعر في لحظة ما أنه صار شيئاً

آخر وهي تحكي له عن أوضاع وحالات المتسولين وسكان الأرصفة والعراة والجياع المنغرسين كالكلاب في صناديق القمامة بحثاً عن كسرة خبز، عن المجانين الذين حطمت الحرب أعصابهم، والعاطلين عن العمل، والمناضلين المتقاعدين، واللصوص، والفلاحين القاطنين بيوت الصفيح، بينما الطغاة ورثة الغزاة يحتلون القصور والمزارع والمؤسسات والشواطئ والحدائق، ويمتصون دم الوطن عنوة واقتداراً.

وما كان حزيناً مثله الآن. إنه يستمع وقلبه يكاد ينفطر. وشعر بأنه وحيد وعاجز، وأنه اختار طريقه الخاطئة، وتساءل عن السبب في فقدان الاتجاه، ومن أين جاءت الصدمة، ولماذا التقى بهذا الطيف في وقت متأخر؟

عبر ثوان خاطفة استُعيد الكابوس، فتراءت له المدينة يجتاحها زلزال يهوي بها نحو جوف الأرض.

صداع وآلام حادة ارتفعت في مؤخرة الرأس، في مركز العطب العضوي. ورفع رأسه نافضاً الغضب، وسمع صوتها البعيد المتلاشي يدعوه للعودة إلى المدينة حيث يلتقيان هناك. حين اختفى الطيف شعر كأن قلبه يخرج من ضلوعه. أحس أنه فقد شيئاً عزيزاً لن يعود. شيئاً انصهر فيه خلال ليالي الشقاء والمطاردة والنفي. وتساءل الأزرق عن وضعه، عن حالته. هل هو فائض عن الوجود وهل ولادته خطأ؟ ولماذا يتعثر ولا يعرف كيف يتلاءم ويدجّن وينسجم مع العالم؟

لم يسمع جواباً على أسئلته لا من داخله ولا من العالم الخارجي. وجاءه العجز على شكل صرخة اخترقت صفاء البراري: يومّا. يا يومّا. آه أين أنت؟ خذي بيدي في هذا الظلام. أعيديني إلى الرحم.

وامتد الصدى. امتد حتى غمر الوديان والسفوح والبحار. كان الأزرق يبكي الآن كطفل فقد الحنان بفقدان أمه.

9

السكينة

لم يرَ الأزرق فتاة البراري بعد ذلك التاريخ، كما لم يدخل المدينة مرة أخرى.

على أبواب المدينة سقط. اصطِيد بطلقة ثقبت مؤخرة الرأس وخرجت من صدغه. هوى الأزرق وحيداً مضرجاً دون أن يصرخ. لقد تمدد على أبواب المدينة ثم تقوس كطفل في رحم أمه وهمد بسكينة.

كان صيد المتوحشين واللصوص والشاذين والمنحرفين والمتسولين والمتشردين والعاطلين عن العمل قد بدأ.

لقد صدرت الأوامر لتطهير البلاد من هذه الجراثيم لإعادة النظام والأمن، وقد جاء قتل الأزرق تتويجاً لمرحلة التطهير وترسيخاً للهدوء والسلام الذي خيم الآن على المدينة.

الجزائر 1973

وقت للجمر

1

بيت يرسو في الغروب. بيت أبيض من الداخل. البيت الذي نجا من القصف.

البيت المطوق ببيوت البلدة يشرف على واد. البيوت تهدمت، ثم احترقت، وهُجرت.

ثمة عجوز محنية، مشوهة بالولادة، تثرثر في ركن البيت.

نحن في اليوم السابع أو الثامن بعد تطهير البلدة. مقاتلون بثياب زرقاء متميزة، ومقاتلون بثياب عادية. حركة وكلمات. حالة استراحة مشحونة بتأهب. طلقات متقطعة تدوي في أعماق الوديان والتلال المجاورة.

على الدكة البيضاء في ظلال شموع تتراقص، يجثو عامل البلدية الدميم. يرشق كلمات تحدث انفجاراً. في حضن العامل رشاش بأخمص خشبي. العامل يحنو على الرشاش كطفل.

بين اللحظة واللحظة يدخل مقاتلون. معظمهم يرتدي سترات زرقاء.

العجوز المشوهة، المتوجة بإكليل من الشعر الأبيض، تحكي بمرارة عن الذين ماتوا بلا ذنب.

عامل البلدية مصاب بحالة استنفار عدوانية. فجأة يجيب: في الحرب لا أبرياء إلا الخراف.

تتذكر العجوز خرافها ودجاجاتها التي اصطيدت وذُبحت. على الطوار المقابل حفيدها. فتى في لون الزنبق. بغتة يصرخ بحدة: هذه الحرب لم تكن عادلة لأنها تركتك. لتذهب العجائز إلى الجحيم!

بين الأسى والغضب، كان الحديث يجري عن الموت الذي داهم أمن وطمأنينة القرى، داخل البيت الراسي تحت وشاح المساء.

داخل كهف فوق عشب طري بين الغابات العذراء رجل وامرأة.

رجل وامرأة داهمتهما الحرب في لحظة نشوة.

الوقت أصيل والشمس تسيل فوق الصخور وعلى أعالي الأشجار.

وقت للعشق. شفيف وراعش. وقت للجسد الضاري. عذوبة مبثوثة في شفافية فضاء مذهب، تهبط على الأرض.

تضطرم الأرض والعشب بغتة فتصعد رعشة الدم في نسغ الجسد.

الرجل والمرأة يتلاصقان. تتكسر أنصال العشب. الدم أكثر حرارة الآن، ورطوبة الأرض تتوهج.

تحت هذا الانصهار العاري والدم يلج الدم، تصرخ الأنثى صراخ أرض عذراء تتشقق: آي. آي. إنها ترتعد تحت هذا الليل الوحشي الهاجم.

برق أحمر يجرح الأفق.

ـ انفجار.

ـ هذا الرعد.

ـ المطر لا يخيف.

ـ ليس هذا أوان المطر.

مع سقوط الشمس في البحر يمتد الليل ثم يتوهج. يمتد حتى يسد مشارف البلدة والكهف. وفي زحفه الناري يجفف قطرات الدم عن العشب الأخضر.

لم يكن وقتاً للسمر. كانوا هناك على الأرض في استراحة حرب، مستلقين ونصف ناهضين. وكانت هناك ضوضاء. يقرؤون ويتهاجسون، وينظفون الأسلحة. على جدران المهجع رسموا كلمات: الثوار يعبرون من هنا. الاشتراكية تُشاد بالدم.

وبالفرنسية بخط أحمر: تحيا الثورة.

يحيا تشي غيفارا.

وعلى الجدران البيضاء ألصقت صور لينين، وماو، وهوشي مينه. ممددون بكامل ثيابهم. فتية في لون الزنبق والشمس وملامح الصخور. يروون نثار قصص مضت عن الحرب والحب والشهداء والحياة اليومية. وعندما يضحكون كأطفال مبتهجين ترحل الحرب.

هؤلاء الرجال الذين نموا كثيراً الآن، والذين كانوا عاديين فيما مضى.

لقد هبطت الحرب أخيراً. جاءت في هزيع رمادي، مفاجئة الفرحَ والنسيان وليالي القرى والطفولة والحب والشجر الأخضر.

هذا الديكور الملون لعالم من البلاستيك، تهاوى.

العجوز القابعة في ركن البيت الأبيض تتحدث بأسى عن الوطن القديم. الوطن الجميل الساحر الذي شوّهته الحرب الهمجية.

أحد المقاتلين يضحك: لا تحزني يا جدتي. سنبني لبنان الأجمل، وطن الفقراء. الذي يحترق الآن ليس وطننا. إنه وطن التجار والطائفيين وكلاب إسرائيل. لقد كنا غرباء فيه يا جدتي ولهذا ينبغي أن يحترق.

شحرور عامل البلدية مايزال حانياً على رشاشه. لحية سوداء نمت في زمن الحرب. ثياب رثة، غبراء، وسخة. شحرور يدخن بصمت ويستمع كضمير.

يروي مقاتل قصة الخروف الهارب من الحرب. ببرود وانشراح يحكي كيف أطلق الرصاص عليه مرة ومرة ومرة. أخيراً سقط بين الأعشاب وهو يثغو: المؤونة انقطعت. الجوع هدَّ الرفاق. فكرنا كثيراً قبل أن نبدأ بدواجن البلدة. الإنسان أغلى في الحرب.

العجوز تنتحب: آه، خرافي. ذبحتموها بلا شفقة أيها القساة.

الحفيد ينهض غضباً: أسكتوا هذه الشمطاء. نموت جوعاً وخرافك تسرح بيننا!

يخرج شحرور من رحلة صمته. يقول ساخراً: بذمتي الخروف كله ابتلعتموه دون أن نذوقه. اشتهينا كأس عرق في هذه الأيام الصعبة فقمعتمونا. هاه. شحرور رفيق لا عمل له غير السكر. حتى في الحرب يطلب العرق. يا عمي ما معنى حرب لا شرب فيها ولا أكل ولا نسوان. هل نحن حجارة أم بني آدميين؟ رصاص واستنفار ووعظ أيديولوجي. نحن الآن في هدنة، وقليل من الخمر يفرح قلب الإنسان. الجملة الأخيرة يقولها بترنيم كنائسي ساخر.

يشيع شحرور مناخاً من المرح يخرج المحاربين من قفص وقارهم.

كابوس الحرب الجاثم في الفراغ، تتخلخل كتلته، فينفرج المكان والنفس عن ابتهاج أنيس يجلي وحشة الموت.

ها هم يتيحون للمسام التي أغلقتها الحرب، فسحة. مقاتل

يستفز شحرور: لو خيروك يا شحرور بين الحزب والعرق من تختار؟

- أختار أمك.

يضحك المقاتل: لكن أمي سبعينية لا نفع فيها!

يرد شحرور مبادهاً: معليش. أنا تحريفي. عفواً منحرف. بذمتي دوّخونا بالعبارات الغريبة التي لا يعرف حتى يسوع الرب منبعها.

كان الآن يسخر من مصطلحات الحزب في إطار من البشاشة.

- ولكن، ألا تستحي من النساء هنا؟ يسأله أحد المقاتلين.

يمد شحرور رأسه رانياً نحو النساء العجائز: أين النساء؟ هيه. هؤلاء نساء! يا عمي عالم غريب. هذه الرمم تسمونها نساء؟ يا ريت أخذتهن الحرب وارتحنا منهن. هيدي الحرب لماذا قامت إذا كانت تأخذ زينة شباب الضيعة وتبقي على هذه المخلوقات؟ وينا نهاية العالم القديم إذن؟

فجأة يدخل البيت شاب وسيم بثياب عسكرية. رجل حرب يوحي بمهابة لا تخيف. يلقي تحية ثم ينفرد ببعض المقاتلين. تستنفر أذنا شحرور ولسانه: أكلناها. القيادة العسكرية بالمرصاد. يشي لرفيق مجاور: هو ذا عزرائيل يوزع الأكفان قبل أن نبلّ ريقنا بقطرة عرق.

- يا شحرور. هذه حرب مو خمّارة. يقول القائد.

ينتزق عامل البلدية: حرب! طظ. هل ينبغي أن يموت الإنسان صاحياً فيها؟ يا رفيق نبيل أنا أرغب أن أموت وأنا سكران وبعدها طيط على الدنيا.

كان الآن يخاطب المسؤول العسكري المنهمك في توزيع المهام.

نبيل متّى قائد القطاع العسكري يضحك بطفولة. يقول

لشحرور: بعد النصر يا رفيق سأقترح أن تكون مدير معامل التخمير، شو رأيك؟

شحرور الذي تصدى للدبابات الفاشية وعطب إحداها برشاشه، تلسعه لمزة القائد: الإدارات لكم والعمل لنا. ارسموا الخطط ونحن ننفذ. أليست هذه مهمة البروليتاريا؟

كان المفوض السياسي يدخن غليونه بهدوء فوق فراش ممدود على الأرض. قال مداعباً: رفيق شحرور. أنت على دين زوربا. اليوم خمر وغداً خمر.

يفاجئه شحرور: هاه. انتبهوا يا رفاق. البيروقراطية تتكلم. المواعظ والأوامر والانضباط والتسلسل والاشتراكات، أمراض السلم والهدوء بيننا. أيها الرفاق خذوا حذركم من هذه الأوبئة.

يتجهم المفوض السياسي قليلاً. في أعماقه يدرك ويرى لون الحرب. يقرأ في عيني شحرور شيئاً غير مألوف. تحوّل جديد لرجال ما عادوا عاديين تحت وهج الحرب الأهلية.

يبدو أن هذه الحرب ستطول. حرب عصابات الجبل ماتزال في بدايتها. لقد اكتسح الوطنيون معاقل الفاشست الوعرة.

- كانت معركة «المتين»أسطورة. حتى نحن لم نصدق أن البلدة سقطت بهذه السرعة. قال المسؤول العسكري نبيل متّى.

كان يشرح وقائع المعركة أمام المفوض السياسي والصحافيين ومجموعة من الرفاق المقاتلين. وبين فواصل الشرح كان بعض المقاتلين يتدخل في التفاصيل.

- كانت الخطورة في عملية الاقتحام التي بدأت من منحدرات الأودية. الفاشيون يتمركزون في المرتفعات الحصينة على طول الشريط الشرقي الممتد من عينطورة حتى ضهور الشوير. كنا نتسرب

تحت قصف متواصل عبر الأودية نحو نقطة التجمع. المدفعية الثقيلة والملاّلات وصناديق الذخيرة، نقلت من مسافة عشرين كيلومتراً ليلاً تحت القصف. أسبوع كامل استغرق التخطيط لاقتحام هذا الثغر الجبلي المنيع. ثلاثة أيام قبل الاقتحام والمقاتلون بين الصخور تحت القنابل. طريق الإمداد والتموين كانت مكشوفة. عند الغروب وفي وقت غير متوقع بدأت عملية الاقتحام. كان الهجوم على شكل قوس تطويقي من قبل القوات المشتركة المسندة بالمدفعية. بسالة نادرة خاضها المقاتلون داخل البلدة. قتال الشوارع كان ضارياً. الأزقة والشوارع كانت مغطاة بالدم. لقد سحبوا قتلاهم وجرحاهم الذين قدروا بأكثر من خمسين. أعطبنا لهم ثلاث دبابات داخل البلدة. طاردناهم حتى مشارف الوديان. كانت خسائرنا اثني عشر بين قتيل وجريح.

ـ أتذكر يا رفيق كيف كانوا يجرون كالكلاب وهم يهربون!

وصاح شحرور: نسيت يا رفيق الذين تخاذلوا.

ـ شحرور! نبر القائد العسكري.

وتابع شحرور: خافوا. بذمتي زمكت مؤخراتهم وبالوا في سراويلهم. هؤلاء الأرانب. واصل شحرور فضائحيته بصوت فجّ وشرس. كانوا يريدون دفع الشيوعيين للموت ليستثمروا النصر في المؤخرة.

ـ شحرور. بلا فضائح. ليس الآن وقت نشر الغسيل الداخلي.

انتبر عامل البلدية: ولماذا؟ رؤوسنا تحت النار وهم يلقون خطابات نارية عن الوطن. لو لم تذهب إليهم وتهددهم بالإعدام الميداني لما أطلقوا طلقة. هذه هي الحقيقة، لماذا لانقولها؟

تدخل المفوّض السياسي: الجميع قاتلوا باستبسال. وحزبنا فصيل من فصائل الحركة الوطنية والمقاومة. لسنا وحدنا. التشهير

يشق الجبهة الوطنية. هذه تجربتنا الأولى في الكفاح المسلح ونحن فخورون بهذه التجربة الفذة والرائدة.

استغرق المفوض السياسي في شرح مغزى الانعطاف الجديد للحزب. هذا الانعطاف الذي ينسف الاتجاه السلمي البرلماني الانتهازي، ويضع الأحزاب الشيوعية على طريق اللينينية، طريق العنف المسلح الوحيد لإقامة سلطة العمال والفلاحين.

كان شحرور يستمع وهو يدخن. عيناه اللامعتان كانتا في الخارج. في ساحة البلدة حيث هاجم الدبابة الفاشية برشاشه فأعطب رشاشها وقتل الرامي، ولكن الدبابة ظلت تتحرك، وظل جسمها الصلب قائماً لا يخترق. وصاح شحرور بأصوات منتشية مجنونة: يا رفاق، يا أخوان. اصطدت الدبابة. أعطوني مدفعاً لتدميرها. هاتوا حبلاً لنجرها.

كان شحرور مرتبكاً أمام الكتلة الفولاذية التي تدور وسط الساحة. ما كان يعرف كيف يستولي عليها وهو خالي الوفاض من القنابل اليدوية.

من رؤوس الشوارع الفرعية لمح مقاتلين يتقدمون. صاح: الدبابة. الدبابة. لا تخافوا. أنا رميتها. مدفعها بلا ذخيرة. استولوا عليها.

كان شحرور منتشياً بصيده، لكن لم يجرؤ على الاقتراب منه. عندما اصطدمت الدبابة بجدار منزل توقع شحرور انفجارها. الصدمة أخمدت حركتها. شحرور مع مقاتلين اندفعوا نحوها. اعتلاها شحرور وراح يصيح: حررنا المتين. حررناها. صار للشيوعيين دبابات. غداً نزحف إلى بكفيا بالمدرعات الحمراء.

خلال ليلتين وشحرور يحرس الدبابة التي نقلت إلى جوار مقر الحزب. وخلال الليلتين كان يشرح لمقاتلي الحركة الوطنية كيف يتم صيد مدرعات العدو بالأسلوب الشحروري.

ارتدت عينا شحرور من الخارج، كان المفوض السياسي مايزال يسهب عن العلاقة مع الجماهير، والمخطط الأميركي - الإسرائيلي ـ الانعزالي والعملاء العرب. هجس شحرور هازئاً: هي ذي البيروقراطية المبجلة تلقي مواعظها الفهلوية علينا بعد الحرب.

حالة الاستراحة والهدنة وغياب الخمر، تختمر نعاساً في أعماق شحرور، فيغفو على ماسورة رشاشه.

يقول الرجل للمرأة: يبدو أن الحب في خطر.

ترد المرأة راجفة: ستحترق الغابات ويلوث البحر.

يقول الرجل: أشم رائحة البرابرة في الريح.

ترتعد المرأة: الحمر لا يرحمون. أرى راياتهم تخفق في الأفق.

يهجس الرجل: آه. لابد أنهم يسممون الينابيع ويحطمون الكريستال ويستبيحون النساء.

ـ هؤلاء المتوحشون. أعداء الرقص والضحك والموسيقى.

ينحني الرجل فوق المرأة. يرتعشان كسنجابين تحت المطر.

من الأفق الشرقي يسمعان دوياً بعيداً. يرتج الكهف المظلم.

أصداء القصف تتنامى في الأودية السحيقة.

طيور السمّان والشحارير تهاجر باتجاه الأدغال، هاربة من النذير الذي التقطته غريزتها.

ـ الطيور تتوجس الخطر.

ـ نحن بعيدان عن الخطر. لا تخافي يا كنزي.

ـ أوه. الحرب كالنار. الآن على أطراف الغابة وغداً تلتهم كل شيء.

مع هبوط الليل يلتحمان تحت غلاف الخطر. ومع هبوط الليل يمتد الرعد الداوي من الأفق البحري حتى قمم صنين.

2

إذن هي الحرب الأهلية. ترتفع وتنتشر كموج ورذاذ البحر.

لأول مرة يصعد البحر من حفرته السرمدية. يكسر شرطه المائي وينهض ليجتاح قمم الجبال العصية.

الطفل الذي كان يبدو بريئاً ولاهياً بألعابه، هو ذا يخلع رداءه الأزرق مكتسياً موج الدم. يجتاح الفنادق والأسواق والمصارف، ويهدد معاقل الأرز المقدس.

وفي الحرب الأهلية تهوي وتتحطم أيقونات القداسة وفي الحرب يكبر الأطفال بهذا البريق الوحشي. تفيض البحار بلآلئها الخفية. يتعمد الرجال والأطفال والزمن بالشراسة المباركة فينكسر الشجر وتتساقط الجدران. يجيء وقت لا كالأوقات. حياة لا كالحياة المعهودة. يحدث اختلال في دورة الأرض والشمس ينبئ بفصول جديدة تخرج من طقس النار.

في هذه اللحظة الراهنة تُستباح المدن وتهلع القرى. هاجس الطمأنينة الكاذب يتخلخل، ويقبل الرعب الجميل. وحده الدم الآن يمحو الأصبغة، والرصاص يهشم الديكور.

المخازن والمتاجر والمؤسسات والسجون وأقبية التعذيب والحدود، تحطمت أسوارها المنيعة. صار باستطاعة الفقراء كسر هيبتها وتوزيع كنوزها بلا ثمن.

فقراء المدن والسهوب والجبال، الصعاليك والمنبوذون والرعاة والمطاردون والمنفيون والمضطهدون، يستحمون بشلالات عطور المخادع الملكية. يرتدون ثياب أمراء الأمس

استهزاءً ثم يقذفون بها إلى النار. مفعمون وهم يسفحون أنهار الويسكي فوق البلاط المرمري. إنهم يشعلون النار بالشمبانيا في ليالي البرد. بالرصاص يحطمون كريستال السان جورج، والهوليداي آن، ويمزقون بالخناجر مخمل الأسرة والوسائد، ويقذفون بصفائح البنزين على سيارات المرسيدس والكاديلاك والرولزرايس. يوقدونها وهم يرقصون.

وتحت أجنحة البحر والظلام يغادرون المدينة نحو الجبل، بعد أن أضرموا النار في أحشاء روما الحديثة.

مهرجان النيران يمتد من جسد البحر حتى ذرى صنين. في المتين دمر الفاشيون بيوت الوطنيين وأضرموا النيران فيها. أخرجوهم إلى الساحات ورموهم بالرصاص ثم صبّوا صفائح البنزين فوق الجثث وأحرقوها. رائحة هواء المتين مضمخة بوهج روائح القتلى الذين لا قبور لهم. أعراس صاخبة. أشعلوا النيران في المنازل ثم وقفوا في الخارج يرمون الفارّين من ذعر النار برصاص بنادق الناتو. قتلوا الأطفال والعجائز والحبالى ومثلوا بهم. من ظل حياً ومشوهاً قالوا له: اذهب إلى عربانك وشيوعييك وفلسطينييك واشرح لهم ما حدث لك. هذا وطن المردة والسبارطيين وليس وطن العربان والبدو.

وبيروت تلوح امرأة حزينة في أزمنة الجمر. امرأة كانت بهية في أزمنة الأرصدة والشعراء المأفونين. جاءها الفرح المميت وهي نائمة تحت سماء عارية، فوق عراء بهيج كان يصدي بالحب ورقصة الجيرك الوحشية.

من رقدتها أُوقظت بغتة. لشدّ ما تبدو الآن تحت الرعد مُذلة، مُهانة. في عرسها الدموي جاءها الفرح القاتل. حمله العمال والفلاحون وسكان الصفيح والذين لا وطن لهم.

بيروت الجواسيس وأندية القمار وسباق الخيل وشقق أمراء النفط والبنوك، تحترق.

هي الآن في طريقها إلى التعميد.

يقول شحرور: هذا البلد اسمه إليعازر ونحن المسيح الجديد.

يسأله المقاتل صالح: ولكن يا رفيق شحرور أنت ماركسي فكيف تؤمن بالبعث؟

يضحك شحرور وهو يتناول كأساً: هيه. اللجنة المركزية هي المسيح يا فهمان. عندما ينهض المواطن إليعازر من قبره تأتي به وتباركه بقداسها ثم تحرّم عليه شرب الخمر.

- شحرور!

ينبر المفوض السياسي.

- شو يا رفيق. دنسنا الآلهة؟

- لسانك كالمنشار، طالع نازل. شو سكرت؟!

- يا الله. سطروا فرمان بحتمية إغلاق الأفواه. لم يبق إلا هذا. يقول عبارته الأخيرة برماً واحتجاجاً.

يسود العشاء جو من المرح والبهجة. أحد الرفاق الذي يقدم سفافيد لحم الخروف يناول شحرور سفوداً: خذ يا رفيق شحرور. بذمتي صياد الدبابات يستحق قطيعاً.

يرفع شحرور عينيه نحو السفود. تبرقان. يخطف السفود:

- هات يا صالح هات. نحن أولى من البيروقراطية.

فجأة ينقطع الحوار الديمقراطي. يتحطم زجاج نافذة المقر السري. وعلى بعد عشرة أمتار تسقط قنبلة وتتشظى.

- انتشار. قصف من بولونيا. يصرخ القائد العسكري.

ويتبعثر الحشد المقاتل.

ستار الليل يتمزق بطلقات بنفسجية خطاطة. ينقذفون في عمق الليل الذي أضيء. يهرعون نحو المنحدرات والصخور والمقبرة المجاورة.

حتى الفجر يستمر القصف العشوائي. يبيتون ليلتهم في العراء. بين الصخور التي ألفوها.

3

في الكهف القائم بين صخور وأعشاب الجبل سألت المرأة الفزعة: ولكن من أين جاء الموت لهذا البلد الذي كان في جمال لعبة؟

وقال الرجل المرتعد: آه. هؤلاء الفلسطينيون!

ـ ولماذا البلد الذي يدخلونه يحملون إليه الحرب والدمار؟

ـ دمرت فلسطين وها نحن نحمل وزر الهائمين على سطح الأرض.

وقالت المرأة: يا إلهي. لقد عكروا البحار، وسمموا الهواء، ومنعوا النوم. لماذا قوسهم موتورة أبداً؟

ـ هؤلاء المجوس. مجوس النار. دائماً يوقدون النيران فوق القمم. تلك هي طقوسهم.

وسألت المرأة: ولكن ما ذنبنا نحن الذين نكره النار؟

وقال الرجل: حفنة مجانين. يبدو أنه عصرهم. هذا الزمن الذي يفجرونه فينفجر بهم. علي وعلى أعدائي يا رب.

ـ ولكن أليس لديهم وقت للحب؟ تسأل المرأة.

ويقول الرجل: إذا اختلفت السماء والأرض عليهم فأين يجدون مكاناً ووقتاً للحب؟ شيء واحد انهوسوا به: الموت!

- هل نحن في زمن الحروب الطروادية؟

- الحروب الضارية لم تبدأ بعد. هذه شرارتها.

وتتقوس المرأة بين ذراعي الرجل. ترف طيور الموت في خيالها. تكتسح بأجنحتها سلامها الخادع المندس في قطرات الحليب. سلام الأزمنة القديمة بعد أن قذف السبي الفلسطيني به إلى البحر.

4

وتحت قيظ شديد كانت المدينة تتلوى. الدخان والدوي، المجاعة وفقدان الأمن. وكانت مدينة محاصرة من البر والبحر والجو. كانت تتصدى للقصف والقتل ورائحة الجثث والرعب السري القادم من الأيام المقبلة.

وما كان أحد معهم غير أنفسهم. غير بنادقهم والخنادق وهذا الشوق الحار لشمس يحلمون بها.

وما كانت الشمس لتشرق.

ظلام ممتد وحصار.

وفوق الأعناق شلالات من القنابل والوهج.

والليالي بعمق المحيطات.

وكانوا في المضائق. ومن المشرق جاءهم الغدر والعار.

وكان البحر يموج بالقراصنة.

وهم الآن في حقل الإعدام الثالث. وكنمور جريحة كانوا يعبرون ممرات الغاب، وعصور العار.

في دير ياسين وفي جرش ذُبحوا، وها هم الآن مرشحون للمذبحة الثالثة.

لكنهم يبدون الآن وكأنهم عنقاء النار.

ها هم يخرجون كالبريق المشع من نصل السكين.

ومن الجهات الأربع هبت عليهم رياح القتل.

وكانت الأعراب في اللحظة الراهنة، تتلمظ بشهوة الدم في وليمة الخوارج. ولأنهم عافوا حمل وزرهم، بدؤوا يقدمونهم فدية لعارهم. كانت الأعراب طوقاً يسد محيط الدائرة استعداداً لرميهم.

غير أنهم في اللحظة الراهنة يكسرون الطوق وحصار المدن. الطوق الذي أحكمته الخنازير حتى صار في حجم أنشوطة إعدام.

يفتحون نافذة في حصار القتل ويندفعون نحو الجبل. هم الآن يؤجلون المذبحة.

5

تحت هذا الغسق ارتدى نبيل متّى وشاح الموت. تدثر به ثم تشظى كنيزيك، وانزرع بين صخور المتين.

كان يتقدم فصيلته تحت ستارة الليل، ولأنه خلع رداء الخوف وارتدى الحرب الأهلية صمم أن يقود بنفسه الفصيلة التائهة. كالصخر والشجر الأخضر كان جميلاً وفتياً. لكنه كان مغواراً من طراز فريد.

عندما انفجرت القذيفة بين قدميه وفي عمق جسده رفعته كموجة قذفها صخب البحر. تبددت فتوته، وشوهت الشظايا تناسق جسده، وإذ اختل نبض قلبه هوى كما يليق بشيوعي مغوار أضاءته الحرب.

وصل النبأ صاعقاً: القائد استُشهد والفصيلة سليمة. في المركز حدثت جلبة. وبدا الذهول أكثر عمقاً من الليل. ومن القواعد انهمر الرصاص كمطر.

ومن البيت الذي خلا إلا من النساء وبعض الأطفال، انطلق النشيج والصرخات.

ـ زغردوا بدل البكاء. صاح شحرور في ساحة البلدة. وشالت زغاريد راجفة تنضح حزناً.

القيادة السياسية تلقت النبأ بحزن صامت.

ـ طهِّروا مواقع الفاشيين القتلة.

ـ أوقفوا نحيب هؤلاء النسوة العجائز.

ـ ولكن كيف يقود قائد عسكري عام فصيلة صغيرة؟

ـ أصحيح أنه... لا... لا. نبيل أعلى من الموت.

ـ ثلاث سنوات تدريب في لينغراد. آه. يا للخسارة.

كانوا واقفين بأسلحتهم وثيابهم الزرقاء على امتداد رواق البيت أمام الجسد المغطى. في عيونهم وهج معتكر، وعلى وجوههم اربداد غضب كتيم. الكتلة التي توافدت نحو المركز كانت تتمور كموج يختزن عصفاً. بين اللغط والأسى والغضب دخل شحرور.

ألقى نظرة على القائد المسجى. انحنى وقبل العلم الأحمر. نفرت دمعة. غص شحرور. قاوم عامل البلدية حشرجاته أمام رهبة الموت. ضغط على الأرض وهو راكع أمام جسد قائده. خذلته قوته والأرض، فانطلقت انتحابة رجت جدران المركز.

ـ أخرجوه. صاح المفوض السياسي.

صرخة شحرور المتحشرجة كانت أقوى وأعمق: وداعاً أيها العظيم. ونهض. وهو يسير خارجاً كانت خطواته ثقيلة وعيناه جمريتين.

للحظة بدا مهدماً محني الرأس. كان وشيك السقوط.

تحدث المفوض السياسي باقتضاب عن عظمة استشهاد القائد كمنارة ومثال لكل المكافحين عن الحرية، وعن ضرورة ضبط الأعصاب في لحظة المحنة، ثم أعلن تعيين خلف للقائد الشهيد.

6

في الطريق قصفونا بقنبلتين. نبيل متّى كان يقود السيارة. وراءنا شاحنة مكشوفة مليئة بمقاتلين. كنا نجتاز غابة الصنوبر بين قرنايل والمتين. القذيفة الأولى سقطت في الوادي على يسارنا. الثانية دوّت في سفح الجبل المنحدر من الزعرور.

خيل إلينا أن السيارة تطير فوق نثار الشظايا. سيارة البيجو اختل مسارها. القائد التي توازنت أعصابه خلال ثوان وراء المقود بدا وكأنه يسبح بنا تحت انهيار الحجارة والغبار.

ـ هذا هو القصف الرابع. إنهم يعرفون السيارة. قال القائد العسكري.

من النافذة وهو يلف المنعطف الحاد، التفت نحو الشاحنة. قلبه كان مع المقاتلين المكشوفين في الخلف.

ـ ماداموا يستهدفونك ويعرفون السيارة لماذا لا تبدلها؟

سأل المفوض السياسي الجالس قربه.

ـ المنطقة هنا مكشوفة. معرضة للقصف من ضهور الشوير. انظر ماذا فعلوا باللاند.

أمامنا ظهرت سيارة جيب محترقة. اخترقتها قذيفة مباشرة فحولتها إلى هيكل فولاذي متفحم.

ـ والذين كانوا فيها؟

- حروق طفيفة. إحدى غرائب هذه الحرب.

وراء كنف هضبة ساترة توقفنا. هبطنا ننتظر وصول الشاحنة. كان مسقط قذيفة الوادي يشتعل في جسد الصنوبر والعرعار. وعلى امتداد الأفق الغربي تحت الأصيل، لاح اخضرار غابات ملفعة بالضباب ورعشة الحرب.

الهلع الذي انتابنا ركن. خوفنا وتوجسنا انتقلا نحو الشاحنة.

- لابد من عبور مضيق الخطر بأقصى سرعة.

وجه نبيل متّى لاح تحت الغروب كتيماً، موتوراً كسهم قيد الإطلاق. تناول المنظار العسكري وراح يرصد الطريق.

- ها هم. قال ذلك بتهليلة طفل ارتخت عضلات وجهه بعد توتر. واستطرد: لكنهم مازالوا في مرمى التعرض للقصف.

كان يتحدث والمنظار على عينيه.

وانفجر دوي جديد رددت الغابة والجبل صداه، وتلاه آخر.

صاح نبيل: أسرعوا. اهبطوا نحو الوادي. آه. الزنا يقصفونهم في منحنى المضيق.

وكنا نرى الآن غباراً ودخاناً كثيفاً يغطي الطريق. كان ينتشر فوق السفوح وذرى الأشجار.

- ذلك المضيق الإجباري اللعين. إنهم يرموننا بقذائف الـ 155.

- ولكن لماذا لم يتم الانتقال ليلاً؟ يسأل المفوض السياسي.

لدينا عملية تبادل بين مجموعتين. القديمة ستعود إلى صيدا اليوم.

وأكمل: حتى لو تمّ التبادل ليلاً فسيرموننا على ضوء

السيارات. هناك رصد دائم لقوس المنعطف ولا يوجد معبر آخر.

- ما الذي ينبغي أن يفعلوه الآن؟

- القفز من السيارة إلى الوادي والعبور مشاة.

الوقت الذي كان يمضي تحت الأصيل، بدا بطيئاً، وثقيلاً. لكنه كان أثقل على القائد. فصيلة من مقاتليه الأغرار تحت قصف متواصل من مسافة قريبة وسلاحها البنادق.

ظهور الشاحنة من غيوم الغبار والدخان، أخرجنا من أعماق بئر كنا نختنق فيه.

كان صندوق الشاحنة فارغاً وسرعتها في الأقصى.

قال القائد: إنهم يتقدمون بين الصخور. كان الآن يرى أشباحهم في عمق الوادي.

هُرعنا نحو الشاحنة. سأل القائد: هل من إصابات؟

- لا أعتقد. قد تكون هناك رضوض من جراء الوثب. كان السائق والشاحنة مكسوين بالغبار والدخان.

واستطرد لاهثاً: القذائف كانت بعيدة. المقاتلون غادروا الشاحنة مذ قصفوكم.

تحت مساء دافئ، خيمنا ننتظر وصول المقاتلين الذين تاهوا في عمق الوادي.

وانهمر قصف شديد شتت الصمت. كان القصف العشوائي يتوزع بين الهضاب والوادي.

وقال القائد العسكري: بعد هدوء القصف لابد من ملاقاتهم. إنهم لا يعرفون المنطقة.

وسأل المفوض السياسي: هل لا بد من ذلك؟

قال القائد: أخشى ضياعهم.

هكذا غادرنا وانحدر سريعاً في عمق الليل والوادي.

7

قالت المرأة للرجل: بعد الحرب سنهاجر. هذه بلاد يرحل الحب عنها.

وقال الرجل: والرقص والأمان وسهرات القرى الضاحكة.

وقالت المرأة: أوه. ما الذي يبقى من بلاد يتساوى فيها فقراؤها بأغنيائها!

وقال الرجل: لا بد أنها قيامة الحفاة والجياع ورعاع الأرض.

ـ ولكن ها هم يهدمون أعرق حضارة في التاريخ.

ـ بلى. بلى. لابد أن يحطموا أشجار الأرز المقدس وأديرة القديسين. وسيدمرون بهمجيتهم مصانع الخمور والشوكولا ومخازن الكلينكس والسوبر ماركت والفليبرز.

تصور أننا لن نلبس بعد اليوم الجينز ولن ندخن المارلبورو ولن نأكل الكبة النية، ولن نرقص الجيرك والتانغو، ولن نبحر عبر حضارة نوازل وصواعد مغارة جعيتا.

ـ آه. آه. يا لحضارة كسروان وبكفيا. ها أنت تسقطين سقوط إمبراطورية روما التي دوخت العالم القديم.

ـ وسيرغموننا على التحدث باللغة العربية.

ـ أوه، أوه. لغة البدو والرعاة والمنحطين.

ـ وسيفرضون علينا في المدارس والجامعات أشعار المتنبي والسياب ومحمود درويش بدلاً من أشعار لامارتين العظيم وبودلير وهوغو.

ـ آه يا لهمجية البدو التي تزحف على أنقاض حضارتنا. وسيدرس أطفالنا تاريخ ثوراتهم من القرامطة إلى عز الدين القسام إلى الثورة الروسية الحمراء.

ـ أواه. أواه. يا للتزوير. بل يا للانحطاط. اندحرت أصالتنا وأمتنا العريقة. شعب الله المختار يسقط الآن تحت أحذية الغرباء. هذه هي القيامة حقاً.

وبين الفزع والمرارة التحمت المرأة بالرجل. فجأة لمحت في عينيه شرراً وحشياً. هلعت وابتدأت تتقصف.

ـ الموت أليس أفضل من الهجرة؟

وأسبلت المرأة عينيها باستسلام.

عندما أخرج الرجل مسدسه رأت المرأة طيوراً وزنابق وطيوفاً من الضوء تلمع وسألته: ما الذي يحدث يا حبيبي؟

قال بتصميم: نقتدي بالفوهرر. إنني أجهز سفينة رحيل لاثنين. هل أنت على استعداد يا حبيبتي؟

وسألته إن كان البحر آمناً فقال بأن طيور الدم تفتح الآن أجنحتها استعداداً للهجرة.

الطلقة الأولى نثرت دماغ المرأة على العشب المبلل بالندى.

الطلقة الثانية اختنق صداها في قاع جمجمة ولدت وماتت في كهف.

بيروت 1976

الفهرس